زيارات للمسلمين في الاتحاد السوفيتي :

جمهورية أذربيجان

بقلم

محمّد بن ناصر العبودي

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ

مطابع الفرزدق التجارية



المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الذي إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون . والصلاة والسلام على نبينا محمد الصادق الأمين ، وآله وصحبه أجمعين ،

أما بعد؛ فإن هذا الكتاب جزء من كتب عديدة ألفتهاعن زيارات للمسلمين في الاتحاد السوفييتي كان الهدف منها الإطلاع على أحوالهم الإسلامية والاتفاق على أوجه التعاون الثقافي مع اداراتهم الدينية.

وقد تمت تلك الزيارات بناء على دعوة موجهة من الإدارات الدينية الأربع لمسلمي الإتحاد السوفييتي إلى رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة لإرسال وفد يرأسه الأمين العام للرابطة أو الأمين العام المساعد فلبت الرابطة الدعوة وتألف وفدها على الوجه التالي:

محمد بن ناصر العبودي الأمين العام المساعد للرابطة (كاتب هذه السطور) رئيسًا للوفد.

الدكتور سعيد بن محمد باديب عضواً.

الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن الباز عضواً.

الشيخ سالم بن عبدالله السالم الأمين العام المساعد للدعوة الإسلامية عضواً.

الشيخ عبدالرحمن بن رشيد بن عوين عضواً.

الأستاذ رحمة الله بن عناية الله أمينًا لسر الوفد.

وقمنا بجولات في الاتحاد السوفييتي شملت أنحاء مما كان أسلافنا العرب يسمونه (ما وراء النهر) يريدون بذلك نهر جيحون الذي صار يسمى الآن (امودآريا) ويؤلف الحدود ما بين الاتحاد السوفييتي وأفغانستان كما شملت مناطق في جنوب جبال قبج وهي (القفقاس) أو القوقاز وما كان شمالها وتعدت ذلك شمالاً إلى بلاد البشكير ثم البلاد الروسية نفسها.

وكان أول ما طبع من المؤلفات التي كتبتها عن تلك الزيارات كتاب (في بلاد المسلمين المنسيين : بخارى وما وراء النهر).

وهذا هو الكتاب الثاني وعنوانه (جمهورية أذربيجان) لأنه مخصص عن زيارة الوفد لهذه الجمهورية وقد تضمن قصة الزيارة ومشاهداتنا فيها كما ألحقت به دراسة وافية عن أذربيجان في الماضي والحاضر.

والشيء الذي أريد أن يلاحظه القارئ الكريم هنا أن الزيارة تمت عام ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م وذلك في أول عهد الرئيس ميخائيل جورباتشوف حيث كان قد انتخب أميناً عاماً للحزب الشيوعي السوفييتي ولكنه لم يكن قد أعلن سياسة إعادة البناء في الاتحاد السوفييتي التي اسماها (البروسترويكا) فكانت البلاد السوفييتة عندما زرناها لا زالت تسير وفق السياسة الجامدة المتعصبة التي أسموها سياسة العهد البريجينيفي نسبة إلى ليونيد بريجنيف الذي كان قد مات وخلفه على منصب الأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي خليفتان لم يعمرا طويلاً ولم يغيرا من سياسته شيئاً.

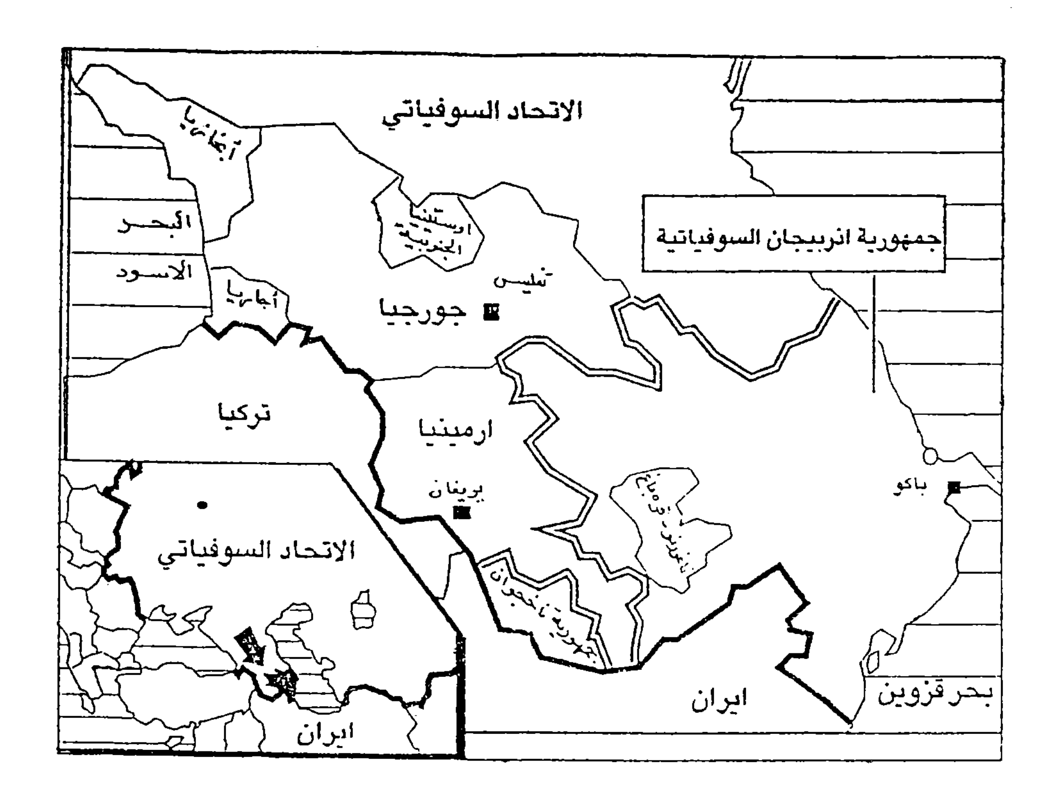
وقد أبقيت كل ما كتبته في ذلك الوقت على حاله رغم تغير الحال في الاتحاد السوفييتي لأنني إنما كنت أكتب وقائع لا أريد تغييرها.

وهي على كل حال توضح أشياء لم تتغير إلى جانب أفكار تغيرت ولكن جمهرة القراء الكرام ربما لم يكونوا يعرفونها ولمن كان يعرفها حق المعرفة أن يقارن بين الوضع الماضي والحالي ويطلع على أشياء صغيرة وربما كبيرة أيضاً لا يجدها في كتاب عربي آخر والله المستعان وعليه التكلان.

المؤلف

مكة المكرمة

محمد بن ناصر العبودي



موقع جمهورية أذربيجان

يوم الأحد ١١ شعبان ١٤٠٦هـ - ٢٠ إبريل ١٩٨٦م

من سمرقند إلى باكو:

كان في وداع وفدنا في مطار سمرقند عدد كبير من الاخوة المسلمين الذين كلهم من العاملين في الإدارة الدينية ومنهم أئمة المساجد. وعلى رأس الجميع الدكتور شمس الدين بن ضياء الدين بابا خانوف رئيس الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان وكان حضر معنا إلى مدينة سمرقند من طشقند مقر إقامته كما كان صحبنا من موسكو إلى طشقند أيضاً، ونائبه الشيخ يوسف شاكر ونائبه الآخر الشيخ عبدالغني عبدالله وإمام جامع الإمام البخاري في خرتنك الشيخ عثمان جان بن رحيم؛ كما كان في الوداع مندوب عن مجلس شئون الأديان اسمه عبدالله علي، وممثل للحكومة المحلية وغادرنا مطار سمرقند الذي يعتبر صغيراً بل حقيراً بالنسبة إلى مطارات المدن التي تماثل سمرقند في عدد السكان بل تقل عنها مثل مطار المدينة المنورة أو بعض المطارات في المدن الصغيرة في الولايات المتحدة الأمريكية.

فسكان مدينة سمرقند يبلغ عددهم في الوقت الحاضر ثلاثمائة وخمسين ألفاً.

كان قيام الطائرة في السابعة والثلث صباحاً متأخراً عن الموعد المحدد في الأصل بخمس دقائق إذ كان الموعد هو السابعة والربع ولا يعتبر ذلك تأخراً في عرف شركات الطيران الدولية.

وعند قيام الطائرة أعلنت المضيفة أن المسافة من سمرقند إلى (باكو) تبلغ ألفاً وخمسمائة كيلو متر ستقطعها الطائرة في ساعتين.

وكان الإعلان بالروسية وحدها كما في سائر الطائرات التي ركبناها في داخل الاتحاد السوفييتي مع أن المنطقة التي سنطير فوقها ليست بمنطقة أصيلة للغة الروسية وإنما فيها لغات محلية يحرص المسئولون في الاتحاد السوفييتي على إبرازها من أجل الدعاية وطمأنة السكان بأنهم لا يريدون محو لغاتهم المحلية وإن كانت اللغة الروسية هي سيدة كل اللغات، حتى في هذه المناطق الجنوبية من

الاتحاد السوفييتي التي كانت من المناطق الإسلامية هنا سواء منها منطقة بخارى وما وراء النهر التي طرنا من إحدى مدنها التاريخية المهمة (سمرقند) وباكو عاصمة جمهورية أذربيجان التي دخلها الإسلام في القرن الأول للهجرة ولا يزال هو دين الأغلبية من سكانها في الوقت الحاضر وهي التي نتجه إليها الآن.

و اللغات هنا ترجع كلها إلى اللغة التركية القديمة التي هي بمثابة الأم لعدد من اللهجات التركية في الوقت الحاضر التي أسماها الروس لغات محلية من أجل تعميق الإبتعاد والتفرق بين الناطقين بها.

فاللغة الأزبكية – كما يقولون – هي في أساسها لغة تركية صرفة وهي اللغة التركستانية تمييزاً لها عن شقيقتها اللغة التركية التي يتكلم بها الناس في الوقت الحاضر في جمهورية تركيا المستقلة ولكنها لا تبعد عنها كثيراً بل إن المتكلمين باللهجتين ولا نقول باللغتين يستطيعون أن يتفاهموا فيما بينهم.

كما أن اللغة التي أسموها الأذربيجانية هي أيضاً إحدى اللهجات التركية التي يفهم الأتراك أكثرها.

جـــواء سمرقنـــــد:

عندما قامت الطائرة وحامت وهي تنحرف إلى الجهة التي سنسافر إليها وهي جهة الجنوب الغربي تجلت منطقة سمرقند من الجو واضحة في منظر لم أستطع رؤيته من قبل لأننا كنا قدمنا إليها من طشقند في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فلم نبصر مما حولنا من الطائرة شيئاً.

وكان من أكثر المناظر إلفاتاً للنظر فيها منظر نهر سمرقند الشحيح المياه الذي جعلوه أيضاً نهرين أحدهما الأسود والآخر زرفشان.

ومنظر القرى التي هي خصبة ولكنها غير بهيجة المنظر لأنها ذات لون رمادي والطرق المنطلقة من مدينة سمرقند إلى عدة أنحاء ولكنها كلها تشترك في عدم الجودة بل في الرداءة لاسيما إذا استحضر الناظر إليها أو السائر فوقها أنها جزء من بلاد دولة عظمى بل ربما كانت أقوى دول العالم من حيث السلاح وعدد الجنود.

ومن أهم المزروعات فيها مزارع القطن التي لم تخضر بعد ولكنها تشغل مساحات واسعة. لأنه لم يمض على نشورها من سباتها الشتوي العميق إلا أيام قليلة ومع ذلك كانت تلك الأيام كافية لكي تورق الأشجار وتخضر الحقول ببشائر القمح الشتوي المحدودة المساحة في هذه المنطقة.

وأما أشجار الفاكهة المتعددة الأشكال فإنها قد اخضرت في وقت قصير وهي كأنها تفعل ذلك لتعوض عما فقدته من خضرة خلال الشتاء الطويل.

والمساحات الواسعة من الحقول كلها للدولة ماعدا قلة منها تديره جمعيات تعاونية تشرف عليها الدولة أيضاً وتملك أرضها كما تملك الأرض كلها إلا قطعاً صغيرة يملكها الفلاحون أو يزرعونها لأنفسهم وهي قليلة إن لم نقل هي ضئيلة بالنسبة إلى المساحة الواسعة الكبيرة من الأرض التي تملكها الدولة ولاتجيزأن يملكها غيرها من الأفراد.

وحتى البيوت الريفية هنا ليست ذات طلاء بهيج وفي الريف توجد البيوت على جانبي الطريق الأسفلتي وهي غير ذات عمق إلاّ في القرى القديمة.

ولكن اللافت للنظر هنا أن الأرض كلها معمورة فلا تكاد ترى شيئاً منها مهملاً فهي ما بين مزروع أو محروث أو مغروس بأشجار الفاكهة النافعة التي تشتهر بها هذه المنطقة من بلاد ما وراء النهر في كتبنا التاريخية القديمة.

ثم ارتفعت الطائرة وران على المتظرغيم تظاهر معه ضباب من ضباب المزارع الندية في هذا الصباح الندى فحجب عنا وجه الأرض.

ولذلك عاد البصر إلى داخل الطائرة يلتمس فيه ما يراه غريباً فكان ما لفت النظر أن الطائرة وهي من طراز ليوشن ١٣٤ النفاثة التي تحمل حوالي ٨٤ راكباً ليس فيها إلا مضيفة واحدة.

وكما كانت وحيدة في الطائرة فإن الضيافة التي قدمتها أيضاً هي كأس صغير كالفنجان وحيد من شراب الكوكاكولا.

ولم يقدموا غير ذلك في الطائرة رغم كون الوقت وقت إفطار وكون الرحلة طويلة نسبيًا إذ تستغرق ساعتين.

وهذا أمر عرفته من الطائرات السوفييتية بعد ذلك وهو ألاّ يقدموا فيها شيئًا من المأكل والمشرب إلا في المسافات الشاسعة إذا صادف وقت الطيران وقت غداء أو عشاء.

لاخمر ولادخان:

والأمر المحمود في هذه البلاد الشيوعية الملحدة أنهم قد منعوا تقديم الخمور في طائراتهم بل منعوا شرب المسكرات كلها في داخل الطائرات في الرحلات الداخلية ولو طالت مدة الطيران فمثلاً الطائرة التي سافرنا معها من موسكو إلى طشقند واستغرقت رحلتها أربع ساعات إلا ثلثًا لم يقدموا فيها خمورًا ولا شيئًا من الشراب الكحولي المخفف كالجعة، بل إنهم حرموا ذلك حتى على من يحضره لنفسه ويتناوله بنفسه في الطائرة، وهناك أمر مهم آخر حميد وهو أنهم منعوا التدخين بصفة دائمة في جميع الطائرات السوفيتية التي تطير في داخل البلاد ولو طالت مسافة الطيران أو مدته.

وهذا أمر حميد وهو جزء من عملهم على مكافحة المسكرات في بلادهم ومن ذلك كونهم حرموا بيع الخمر في المحلات التجارية وكلها متاجر حكومية أي كل المتاجر الكبيرة في البلاد هي متاجر حكومية وليست ملكًا للأفراد.

وقد قصروا بيع الخمر على خمس ساعات من كل يوم في أيام الأسبوع الخمسة تمتد من الثانية من بعد الظهر إلى الساعة السابعة. وحرموا بيعها مطلقًا في يومي السبت والأحد.

وذلك أنهم وجدوا أن المسكرات تضر بالشعب وتنهك الدولة بما يفوته السكر من إنتاج المواطنين.

أما الدخان فإنهم حرموا شربه في كثير من المرافق ومنها القطارات والسيارات العامة مثل الطائرات حتى في المحلات العامة منعوا شربه فكان بعض الموظفين المدخنين منهم يذهبون إلى المراحيض يشربون اللفافة بعد الأخرى.

وهذه البلاد هي شيوعية ماركسية في نظامها التي تطبقه معادية بطبيعة ذلك النظام للأديان ولذلك لايمكن أن توصم حكومتها عندما حرمت تقديم الخمر والدخان في الطائرات بالهوس الديني أو بالرجعية في نظرتها إلى أمور الحياة.

الأمر الذي لم يكد تنجو منه أية حكومة في بلد من بلاد المسلمين التي لاتزال تبيح تقديم المسكرات في طائراتها ولاتحد من شرب الدخان عليها إذا ما قررت منعه.

ولذلك نجد أن بعض الحكام في البلدان الإسلامية رغم معرفتهم بضرر الخمر على الشعب فإنهم لايجرؤن على تحريمها حذرًا من أن يوصموا بوصمة التأخر والجمود يخشون الناس والله أحق أن يخشوه!.

كل المقاعد في هذه الطائرة السوفييتية وفي أكثر الرحلات الداخلية هي درجة واحدة لاتختلف عن الدرجة السياحية في الطائرات الأخرى إلا في أشياء ضرورية لايتمسكون بها هنا فمثلاً يخلو جيب المقعد من أي بيان عن الطائرة ومن أية مجلة تتعلق بالطيران أو حتى بأمور الدولة وحتى الموسيقى لايعزفونها إلا لمدة قصيرة جدًا عند الصعود والهبوط وأحيانًا لاتعزف حتى عند الصعود.

ولذلك يجد المرء داخل الطائرة هادئًا فيمكنه أن ينعم بنعاس لذيذ آمنا من أن تفوته وجبة الطعام أو كأس الشراب ، بل إنه ينام آمنا – أيضًا – من أن تفوته ابتسامات المضيفة لأن المضيفات هنا لايبتسمن للركاب، بل إن الواحدة منهن تؤدي عملها وكأنها الآلة، مع أن تعاملهن مع الركاب قليل يكاد ينحصر في تقديم كأس الشراب الصغير ثم أخذه بعد فراغه، ولم نكن حصلنا على نوم البارحة فنام بعض الرفاق.

وقد شعرت بالبرد في الطائرة أول الأمر ثم أشعلوا المدافئ بقوة حتى شعرت بالحر بل أوجست خيفة على الطائرة من فرط الحرارة إلى أن عرفت من أحد المرافقين أن هذا معتاد.

ثم بعد فترة أوقفت التدفئة وعاد البرد إلى الطائرة.

ولم يقدموا أية صحف هنا ماعدا صحيفة (ازفستيا) التي معنى اسمها الأخبار بالروسية وهي صغيرة بل حقيرة تصفحتها فوجدتها لاتتعدى أربع صفحات من حجم غير كبير. وورقها رث وإخراجها رديء ولكن اللافت للنظر أنها لاتنشر الإعلانات التجارية التي اعتدنا على رؤيتها في الجرائد الأخرى خارج العالم الشيوعي.

قبل النزول في باكو :

أعلنت المضيفة باللغة الروسية وحدها أن درجة الحرارة الآن في (باكو) عاصمة جمهورية أذربيجان السوفيتية تبلغ اثنتي عشرة درجة مئوية.

ثم أقبلت على الشيخ طلعت تاج رئيس الإدارة الدينية في القسم الأوربي وسيبيريا الذي يرافقنا جزاه الله خيراً في طول رحلتنا وكان يجلس بجانبي وقالت له إننا قد تسلمنا خبراً من مطار باكو بأن شيخ الإسلام الله شكر باشازاده في استقبالكم الآن في المطار ومعه بعض المرافقين وإننا قد تسلمنا أمراً بأن لايتحرك أحد من ركاب الطائرة إلا بعد أن تنزلوا أنتم إكراماً لكم. وكانت الطائرة مليئة بالركاب.

وكانت تتحدث إليه بالروسية وقال إنها أخبرته أنها أذربية أي أذربيجانية مسلمة والنسبة إلى أذربيجان هي اذربي بدون جيم أو أذري بدون باء، ورد ذلك في الحديث وهو الصحيح في اللغة ولكننا درجنا على كتابتها أذربيجاني اتباعاً لما هو مشهور عند عوام الكتاب و(خطأ مشهور خير من صواب مهجور) كما يقال. وإلا فإنه ورد في حديث أبي بكر رضي الله عنه: «ولتألَمُنَّ النوم على الصوف الأذْريّ، كما يألم أحدكم النوم على شوك السَّعْدان».

قال المبرد: الأذْري ، منسوب إلى أذربيجان ، وكذلك تقول العرب ، قال الشماخ:

تذكرتها وهْنا ، وقد حال دونها　　　قرى أذربيجان المسالخ والجال

قال : هذه مواضع كلها.

وقبيل الوصول أيضاً تحدثوا من مكبر الصوت عن مدينة باكو التي سننزل فيها من حيث موقعها وأهميتها الاقتصادية وأنها تعتبر عاصمة صناعة النفط في الاتحاد السوفييتي ثم أداروا المسجل ببعض الموسيقى.

وهذا أمر مفيد أن تتحدث المضيفة للركاب عن المدينة التي سينزلون فيها لأن حديثها يكون موثقاً وستكون المعلومات المجردة التي توردها صحيحة لكونها مستقاة من مصادر رسمية.

كان المكبر يذيع ذلك بصوت هادئ من الطائرة التي لاحظنا أن الركاب أكثرهم إن لم يكونوا كلهم -غيرنا - هم من مواطني الاتحاد السوفييتي وليس كما كان عليه الأمر في الطائرة الكبيرة التي أقلتنا من موسكو إلى طشقند حيث كانت نسبة من الركاب هم من السياح الغربيين مابين أوربيين وأمريكيين.

واخترقت الطائرة السحاب وهي تهبط إلى سحاب آخر اخترقته أيضاً فظهرت من تحته معالم الأرض على شاطئ بحر قزوين الذي تقع عليه مدينة (باكو).

واستمرت تطير لفترة قصيرة فوق لسان من الأرض على بحر قزوين فبدت المنطقة أقل خصباً من مدينة سمرقند الشهيرة بفاكهتها وبنقلها الذي منه الجوز واللوز والفستق.

وبدت بعض البيوت في الريف ذات سقوف غير ناصعة البياض وعندما قربت الطائرة من المطار مرت من فوق منطقة ملطخة بنفط أسود ظاهر على وجه الأرض ربما كان من نفايات بعض الأنابيب التي تنقل النفط إلى معامل التكرير وإلى سفن الشحن.

في مطار باكو :

بدت المنطقة التي تحيط بمدارج المطار ذات أعشاب خضر كأعشاب الرياض في الصحراء وكأنما كان الربيع قد حل عليها قبل حلوله على طشقند وسمرقند إذ الأشجار خضر والمزارع أكثر خضرة منها.



عند الوصول إلى مطار باكو

وحطت في المطار في التاسعة والربع بتوقيت سمرقند التي ركبنا منها بعد طيران استمر ساعتين إلا خمس دقائق ويوافق ذلك السابعة والربع بتوقيت باكو ففرق التوقيت بين المدينتين هو ساعتان.

وجدنا عند سلم الطائرة عدداً من المستقبلين على رأسهم الشيخ (الله شكر باشا زاده) أي شكر الله ولكنهم قدموا المضاف على المضاف إليه ومعه بعض العاملين في الإدارة الدينية وهو كبير المسلمين في هذه الجمهورية بل في المنطقة التي تقع

دون جبال القفقاس بالنسبة إلينا وإن كانت التسمية الرسمية لوظيفته هي (رئيس الإدارة الدينية لما وراء القفقاس) فالوراء هنا مراد به لمن يكون في موسكو عاصمة الاتحاد السوفييتي.

وهو أحد رجال أربعة يتولون رئاسة الإدارات الدينية الأربع لمسلمي الاتحاد السوفييتي ولكنه الوحيد الذي يلقب بلّقب شيخ الإسلام وأحد زملائه وهو الدكتور/ شمس الدين بن ضياء الدين بابا خانوف يلقب بالمفتي إضافة إلى لقبه رئيس الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان ورئيس مكتب العلاقات الخارجية للإدارات الدينية في الاتحاد السوفييتي.

كما كان هناك في الإستقبال الشيخ عباس بن شعبان إمام مسجد أحمد رجه بيك والشيخ أحمد عباس إمام مسجد تازبير، والشيخ صابر حسين مدير العلاقات الخارجية بالإدارة الدينية في باكو، وممثل شئون الأديان وهي إدارة أشبه بالوزارة تسمى (مجلس شئون الأديان لدى رئاسة مجلس الوزراء في الاتحاد السوفييتي) ويدعى (عبدالله يوف) وهو من أبناء المسلمين، وقد يقال في اسمه (رفيق بن النجف عبد الله يوف) وهذا أحد المظاهر السريعة، لوجود الطائفة الشيعية في هذه المنطقة من أذربيجان.

وفي الاستقبال أيضاً بعض المصورين المحليين إضافة إلى الوفد الإعلامي الذي حضر معنا على الطائرة وكان ملازماً لنا طول الرحلة وعدد أفراده خمسة وكان سبقنا في النزول من سلم الطائرة لكي يتمكن من تصوير نزول الوفد واستقباله.

ومن الملاحظ أنه لم يتحرك أحد من ركاب الطائرة قبلنا حتي إن الركاب لم يجرءوا حتى على أخذ حقائبهم وأمتعتهم اليدوية من رفرف الطائرة التي هي فوق رؤوسهم حتى نزلنا نحن وذلك بناء على أمر صدر لهم من الطائرة بأن ينتظروا حتى ينزل الضيوف الأجانب، وهذه عادة لهم أخذوا بها أنفسهم مع الضيوف إضافة إلى كون الشعب السوفييتي قد اعتاد على تلبية أوامر حكومته من دون اعتراض فضلاً عن التأفف والتضجر بسبب أعمال البطش والتنكيل التي كان يتعرض لها كل من يعارض أوامر الحكومة في القديم.

وبقينا في قاعة كبار الزوار فترة من الوقت وانضم إلينا طائفة أخرى من المستقبلين لم يكونوا عند سلم الطائرة.

وجددت عهداً بلقاء الشيخ الله شكر باشا زاده لأنه كان قد رأس بعثة الحج السوفييتية قبل سنتين وقابلته في مكة المكرمة واستضفناه مع وفد الحجاج السوفييت في رابطة العالم الإسلامي كما اعتادت الرابطة أن نفعل ذلك في كل عام.

وقلت له : لقد استجيبت الدعوة التي دعوناها في مكة المكرمة بأن يقدر الله الاجتماع مرة ثانية في الاتحاد السوفييتي وكنت أيضاً قابلته في بغداد قبل حوالي عشرين يوماً حيث كنت مدعواً إلى بغداد للاشتراك في اللجنة التابعة للمؤتمر الشعبي الإسلامي العالمي التي كانت تعقد اجتماعها في بغداد آنذاك.

في مدينة باكو :

مدينة باكو من المدن المهمة في الاتحاد السوفييتي بسبب كونها عاصمة النفط ولكونها أيضاً عاصمة منطقة يسمونها جمهورية اتحادية لأنها واقعة على الحدود الدولية وتشترك حدودها مع حدود دولة عضو في حلف شمال الأطلسي وهي الجمهورية التركية وذلك مايجعلها مهمة من الناحية العسكرية أيضاً.

وبالنسبة إلينا فإنها تعني عاصمة من عواصم التاريخ الإسلامي رغم كونها لم تكن معروفة بهذا الاسم في كتبنا العربية التاريخية ولكن أذربيجان هي مسرح من مسارح التاريخ ومنها معركة باب الأبواب الشهيرة التي من المقرر أن نزورها بعد باكو إن شاء الله تعالى.

إضافة إلى كونها منطقة إسلامية يؤلف المسلمون الأكثرية بين سكانها.

سار الموكب من المطار وهو كالمعتاد مؤلف من سيارة رسمية سوداء طويلة كالتي يركبها الضيوف الكبار من الوزراء بل رؤساء الوزارات يتبعها رتل من السيارات للإخوة أعضاء الوفد وللمرافقين الآخرين وتتقدمها سيارات عسكرية لا أدري أهي للشرطة أم للجيش. وقد فرشوا أرض السيارة التي أركبها بفراش إضافي من السجاد الثمين الذي ينسج في هذه الجمهورية.

وكان أول ما استرعى انتباهي في مدينة باكو أنها مثل سمرقند أكثر أشجارها من أشجار الفواكه والأشجار المثمرة الأخرى ، فمثلاً الأشجار المغروسة على جانبي الشارع بل جوانب الشوارع التي رأيناها أكثرها من أشجار الزيتون المثمرة أي نعم إنها مغروسة في شوارع المدينة وهي من الأشجار الرئيسية في هذه الشوارع وهناك أشجار التوت أيضاً وهي من الأشجار المثمرة المنتجة هنا أيضاً وهذان مثلان على الأشجار المثمرة في شوارع هذه المدينة.

وقد ذكرني هذا بعادة حميدة بدأت البلديات في بعض مدن المملكة تتبعها وهي عادة غرس النخيل في الشوارع فالنخلة جميلة المنظر وفي الوقت نفسه مثمرة بل ذات تمر ثمين وبخاصة في أوقات المساغب والمجاعات نسأل الله تعالى أن يبعدها عنا وعن بلادنا.

نزلنا في فندق موسكو ويقع على سفح جبل متطامن تقع عليه أبنية مهمة في المدينة يسمى (بادكوبا) أي الجبل الشمالي باللغة الفارسية.

ومما تجدر ملاحظته أن جمهورية أذربيجان لها حدود مشتركة مع إيران وإن كانت المنطقة التي تجاورها من إيران وهي أذربيجان الإيرانية تتكلم الآذرية التي هي مشتقة من التركية بديلة من الفارسية فإن هناك أماكن في أذربيجان السوفييتية هذه ذات أسماء فارسية نتيجة للحكم الفارسي القديم وللجوار والاحتكاك باللغة الفارسية ولكون أذربيجان هذه كانت مسرحاً لغزوات فارسية في عصور تاريخية مختلفة.

والفندق كبير وهو سياحي ولاحاجة إلى القول بأنه مملوك للدولة لأن كل الأمكنة المهمة بل وغير المهمة في المدن مثل الفنادق والحوانيت والمحلات التجارية والأبنية السكنية هي مملوكة للدولة ولايملك الأفراد إلا بيوتاً صغيرة منفردة في الضواحي البعيدة من المدن أو في القرى والأرياف.

وقد أنزلوني في جناح خاصٍ من الفندق واقع فوق مقدمته تفتح نوافذه على جهاته الثلاث كلها تطل على بحر قزوين لأ ن موقعه واقع على شاطئ بحر قزوين

في أجمل منطقة من هذا الشاطئ الذي تطل عليه مدينة باكو ويشاهد النزيل الشوارع الأسفلتية الجيدة تنهض من شاطئ البحر وتصعد على أقدام هذا الجبل غير العالي ثم تتدرج في الصعود حتى تصل إلى أكتافه في منظر جميل.

وأكثر هذه المنطقة كانت مملوكة للأثرياء والوجهاء والمترفين في البلاد قبل الثورة الشيوعية.

وقد أخبرونا أن البرنامج يتضمن استراحة قصيرة في الفندق يتبعها تناول طعام الإفطار في قاعة خاصة في الفندق في الساعة التاسعة ثم الخروج مع أن الساعة كانت لدينا هي العاشرة وذلك أن فرق التوقيت بين سمرقند وباكو هو ساعتان. وكنا تناولنا شيئًا من طعام الإفطار المبكر في مطار سمرقند لعلم مضيفينا بأن الطائرات السوفيتية لاتقدم طعامًا في الرحلات الداخلية مثل هذه.

إلى معهد المخطوطات:

كانت أولى فقرات البرنامج في هذا اليوم زيارة معهد المخطوطات ومكتبة المخطوطات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم الأذربيجانية.

توجه الموكب إليه نازلاً من أقدام الجبل الشمالي الذي لايعدو كونه تلة جبلية مرتفعة عن بقية مدينة باكو فانحدرنا قليلاً إلى القسم الفاخر القديم من مدينة (باكو) الذي يتألف من أبنية قديمة فاخرة بنيت قبل الحكم الشيوعي وتحتها الحوانيت الكبيرة التي كانت فاخرة آنذاك ويشبه قلب المدينة التجاري الذي كان فاخرًا من مدينة القاهرة كما يشبه إلى حد ما الأحياء القديمة الجيدة من مدينة باريس في الوقت الحاضر غير أنه الآن يشبه حالة عزيز القوم الذي ذل، إذ زايله تميزه وفخاره واقفرت المحلات التجارية فيه من السلع الفاخرة وحلت محلها سلع حكومية يبيعها باعة حكوميون وتعرض فيها سلع محدودة الكيف والمقدار.

وصلنا إلى (معهد المخطوطات) فوجدنا المسئولين في الانتظار لأنهم كانوا قد أخبروا بأننا سنقدم إليهم وقد استعدوا لهذه المناسبة لأن قدوم ضيوف عرب لزيارة معهد المخطوطات الذي أهم ما فيه من الناحية التاريخية والثقافية هي المخطوطات العربية أمر له أهميته واعتباره، لاسيما في مجال الدعوة والدعاية الثقافية إذ يوحي ذلك بأن القوم حريصون على الثقافة العربية الإسلامية في بلادهم.

كان أكبر شخص مسئول من الموجودين حاضراً عند باب المعرض الذي هو في بناء ضخم قديم من الأبنية القديمة الفاخرة التي ذكرتها وهو الدكتور قهر مانوف جهانكير واحد أوغلو مدير المكتبة.

وبعد أن حيانا وقدم لنا موظفي المعرض ومنهم سيدة سريعة الحركة كثيرة النشاط ذكر أن اسمها(ماهرة بنت حميد) مديرة قاعة المخطوطات العربية وقال سوف تشرح لكم السيدة (ماهرة) مايحتاج إلى شرح من أمر المخطوطات الموجودة.

تقدمت (ماهرة) وهي في حدود الخامسة والثلاثين من العمر وتعرف العربية بمقدار من المعرفة جيد ذكرت أنها تمرنت على التحدث بالعربية في العراق وأنها أمضت هناك فترة تدريبية لهذا الغرض ولهذا تظهر اللهجة العراقية واضحة في كلامها بالعربية.

قالت ماهرة : إن معرضنا هذا قد بدأ إنشاؤه في عام ١٩٥٠م وإنه يحتوي على خمسة وأربعين ألف مخطوط مابين مخطوطة أصلية ومصورة لمخطوطة نادرة وأغلب هذه المخطوطات باللغة الأذرية التركية التي هي لغة أذربيجان وهي التركية ويحتوي على سبعة عشر ألف مخطوط باللغة العربية.

وسوف نطلعكم على أهم مالدينا في المعرض في قاعاته المختلفة.

ثم دخلت إلى إحدى قاعات العرض المتعددة وكلها مرتبة ومنظمة وقالت وهي تشير إلى إحدى المخطوطات: هذه مضى على تاريخها ستمائة سنة إنها كتاب الصحاح في اللغة للإمام الجوهري، فقلت في نفسي: إن في مكتبتي الخاصة في الرياض مجلداً مخطوطاً من صحاح الجوهري مكتوبا في القرن السابع الهجري فهو أقدم عهداً من هذه.



في قاعات المخطوطات العربية

وقالت إنها مخطوطة فاخرة معتنى بها، والأمر ظاهر في صحة ماذكرته غير أن صحاح الجوهري توجد له مخطوطات جيدة موثقة في عدد من مكتبات العالم.

ثم أرتنا مصاحف مخطوطة متعددة بعضها مذهب وبعضها مكتوب فيه تفسير الآيات بخط أحمر بين سطور المصحف المكتوب بمداد أسود، ومنها مصحف ذكروا أنه مكتوب في القرن الثالث الهجري ولم أتأكد من ذلك.



نماذج من المخطوطات العربية في باكو

ومن الأشياء الغريبة التي عرضوها وقد كتب عليها قرآن كريم جلد حية كبيرة وهو طويل كتب عليه المصحف الشريف.

وقد تعددت القاعات في المتحف وكل قاعة مخصصة للون من ألوان المعرفة فهذه للكتب الفلسفية والفنية وأخرى لتطور الخط وفي بعض القاعات أركان لأنواع من المعروضات من ذلك ركن لتطور الخط الأذربيجاني بالحروف العربية عرضوا فيه عدة مخطوطات حسب التسلسل التاريخي لها.

وذلك أن اللغة الأذرية التي هي لهجة تركية كانت كاللغة التركية تكتب بالحروف العربية إلى ماقبل عهد قريب.

وحتي علم العروض الذي هو باللغة العربية قد عرضوا عدداً من المخطوطات التي تتناوله وكلها حديثه العهد وليست بذات قيمة علمية كبيرة.

وقد اهتموا خاصة بما يتعلق بالشعب الأذربيجاني شعب هذه البلاد الذي كان يحق علينا أن نسميه بالشعب الأذري إذا أردنا الدقة في التعبير ولكننا آثرنا الخطأ المشهور على الصواب المهجور ومن ذلك اهتمامهم بآثار شخص قالوا إنه الذي جمع شعراء أذربيجان وقد أبرزوا آثاره ودونوا أخباره، وذكرت بهذه المناسبة بعض العلماء الذين أضافوا جديداً بل أشياء جديدة في المجال الأدبي واللغوي وغير ذلك من المجالات عندنا ولكنهم لم يجدوا من أبناء قومنا العرب إلا التناسي ثم النسيان وربما كان سبب ذلك كثرة النوابغ وازدحام الأفكار والآثار بهؤلاء الأدباء المؤرخين وقد يكون السبب غير ذلك مثل التقصير حتى عن التفكير بمثل هذه الأمور.

وحتى الأمور التافهة أو التي نعتبرها كذلك قد بالغوا في عرضها وتصوير فائدتها مثل نماذج لبعض الآلات الموسيقية.

ومع ذلك فقد استمتعنا بزيارة هذا المعرض الذي أحيا في نفسي ذكرى المخطوطات العربية النادرة التي تضمها مكتبتي الخاصة وتزيد على ثلاثة آلاف كتاب مخطوط ولكن بعد عهدي برؤيتها فضلاً عن دراستها لأنني بعدت عنها في العمل إذ تركتها في الرياض ولم أستطع نقلها مع مكتبتي الكبيرة إلى مكة المكرمة حيث عملي في رابطة العالم الإسلامي كما أن بقائي حتى في مكة المكرمة أصبح محدود الوقت وذلك بسبب كثرة الأسفار التي تفرضها طبيعة العمل في رابطة العالم الإسلامي التي من أهدافها الاتصال بالإخوة المسلمين وتوثيق التعاون والتآخي معهم وذلك يحتاج إلى الإنتقال ومواصلة الترحال في أنحاء العالم الشاسعة والله المستعان.

وقد ودعنا موظفو المعرض بحفاوة بالغة ربما لكونهم رأوا فينا من يهتم بهذه المخطوطات ويعرف قيمتها التاريخية إضافة إلى معرفة تاريخ الكتابة التقريبي من نوع الورق وشكل الخط.

متحف التاريخ الأذربيجاني :

تركنا معرض المخطوطات الذي كانت مشاهدته سياحة في آثار عربية في الحقيقة سواء من حيث الشكل والمضمون أو من حيث الشكل فقط إذ كلها تكاد تكون بالحروف العربية قاصدين السياحة في أثار أقدم عهداً بل أعمق ذهاباً في التاريخ.

وذلك بزيارة متحف التاريخ الأذربيجاني كما وضعوا اسمه في البرنامج وهو كذلك يقع في القسم القديم الفاخر أوالذي كان فاخراً من مدينة باكو.

ورأينا في الطريق مابين المعرض والمتحف أنموذجاً للسور العظيم المبني على مدينة (دربند) التي أسماها أسلافنا المسلمون (باب الأبواب) مع أن ترجمة (دربند) تعني (الباب المغلق) ولذلك كانت بعض المصادر التاريخية العربية تسمى تلك البلدة (الباب) من دون إضافة.

ومن المفرح أننا سنزور هذه المدينة (دربند) بعد زيارة أذربيجان وهي في الطريق من باكو عاصمة جمهورية أذربيجان إلى (محج قلعة) عاصمة جمهورية الداغستان.



عند وصول الوفد إلى المتحف التاريخي

كانت في الاستقبال مديرة المتحف السيدة (صلمز بنت إسماعيل) وهي مثل ماهرة بنت حميد من المسلمات لأن أكثرية السكان في جمهورية أذربيجان هذه هم من أبناء المسلمين ومع المديرة عدد من الموظفين والموظفات.

سارت المديرة ترشدنا بنفسها في قاعات المتحف وتشرح ما غمض من محتوياته. فكانت البداية بمشاهدة أحجار مما قبل التاريخ ذكروا أن عمرها مليون سنة.

ثم مخلفات من العصر الحجري وأخرى من العصر البرونزي وكل قسم من هذه في ركن خاص أو قاعة منفردة وأهم ماعرضوه من مخلفات هذه العصور القديمة أسلحة كثيرة مختلفة من الحجارة الثقيلة وغيرها.



الوفد داخل المتحف التاريخي لأذربيجان

ثم من الأشياء المهمة فيه رؤية قبر قديم لميت وضع في جرة كبيرة من الفخار وجعلوه في هذه الجرة على الهيئة التي كان عليها في بطن أمه، وليس ممدداً كما هو الحال في الدفن على الطريقة الشرعية ولا على هيئة المرء إذا كان جالساً القرفصاء كما كان يفعل بعض القدماء.

وهناك قبر آخر لشخص سليم العظام وهو من العصر البرونزي قالوا: مضت عليه خمسة آلاف سنة.

وفي ركن آخر عرضوا آثاراً متعددة من العصر البرونزي وقالوا إنها كلها وجدت في قبر واحد، إذ بعض سكان هذه المنطقة في العصور القديمة كانوا يدفنون بعض مايملكه الميت معه في القبر.

وقل مثل ذلك عن مخلفات قيمة من الحديد والنحاس.

وكل ذلك بكثرة ومعروض بنظام وهو غنى بالمعروضات وأثمن من معرض المخطوطات.

آثار الدولة الميدية :

الدولة الميدية حكمت في هذه المنطقة وذلك قبل ميلاد المسيح عليه السلام بقليل، وقد عرضوا من مخلفات الناس في تلك الدولة الميدية (ميديا) معروضات كثيرة ذات قيمة تاريخية كبيرة منها جثث لموتى موضوعة في أوان فخارية كبيرة وقد أغلقوا الآنية كلها ماعدا شقًا واحدًا في أعلاها ذكروا أنهم تركوه من أجل أن تدخل منه الروح يوم القيامة.

ثم تدرجت المعروضات مع الزمن حتى وصلت إلى القرن الثاني بعد ميلاد المسيح عليه السلام ومن تلك الفترة قبر رجل وزوجته وقد سلمت عظا مهما كلها وذكر لنا المسئولون في المتحف أنهم كانوا يستعملون مادة خاصة للتحنيط تحتفظ بالعظام والأعصاب التي تشدها دون اللحم فإنه قد ذهب.

وقد قبر الزوجان أحدهما بجانب الآخر وكأنهما في فراش النوم.

وذكروا أن العادة عند بعض الناس في ذلك العهد أن تقتل الزوجة وتدفن مع زوجها إذا مات عنها.

ورأينا قبراً لزوجين آخرين وقد أمكن التمييز بين الرجل والمرأة بوضوح وإن لم يبق منهما إلا العظام وذلك بوجود حلية في ذراع المرأة وفي أحد أصابع يديها.

ومما يجدر ذكره أن هذه القبور نقلت من أماكنها الأصلية ووضعت في المتحف بطريقة جعلتها تبدو كأنها في حالتها التي كانت عليها في القبور الأصلية.

آثار عربية هامة :

تدرجت المعروضات في القدم وإن شئت قلت في الحداثة حتى وصلت إلى القرن الخامس الميلادي أي قبيل المبعث النبوي الشريف حيث عرضوا نصاً مكتوباً بخط عربي قديم من ذلك العهد أي ماقبل البعثة النبوية بقليل إذْ قالوا إن تاريخه يرجع إلى القرن الخامس الميلادي.

وهذا الخط يشبه إلى حد كبير النصوص العربية التي وجدت منقوشة في شمال الجزيرة العربية وأطراف الشام في ذلك العهد.

وحروفه أقرب الحروف إلى الخط الكوفي القديم، وقلادة من ذلك العهد ورسم إيضاحي لما كانت عليه مدينة (دربند) أو (باب الأبواب) في ذلك العهد.

وهناك آثار فخارية قديمة أي من ذلك العهد قالوا إن بعضها وجدت في (مدينة الريح) التي هي (باكو) أو مدينة قديمة كانت في مكانها أو قريباً من مكانها.

ثم تجاوزت الآثار المعروضة عهد البعثة المحمدية حيث عرضوا أحجاراً عليها كتابات عربية واضحة وبعضها شواهد قبور لقوم من المسلمين.

حتى وصلوا إلى عهد المغول عند اجتياحهم لبلدان العالم الإسلامي فعرضوا ملابسهم ونماذج من سلاحهم.

إلى أن وصلوا إلى العصور الحديثة فكان من مخلفاتها شواهد لقبور مكتوبة باللغة التركية وبحروف عربية أحدها مؤرخ في عام ١٢٠٣هـ.

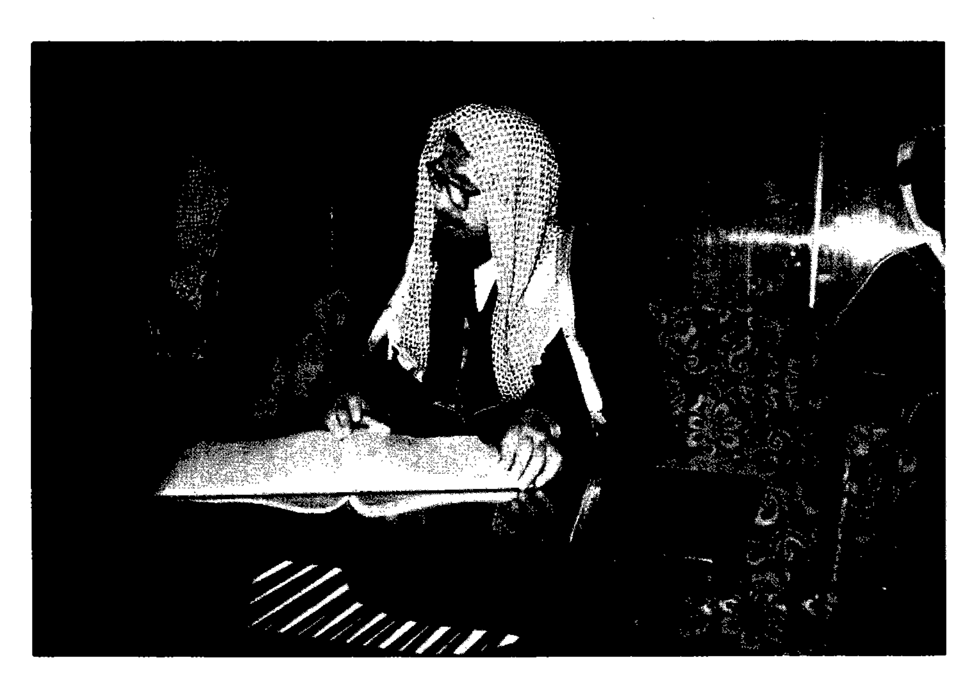
وبعد هذه الجولة الممتعة في قاعات هذا المتحف التاريخي وأبهائه تقدمتنا المديرة (صلمز بنت إسماعيل) في الصعود إلى طابق أعلى فكانت فيه قاعات واسعة إحداها مبنية على طراز عربي أندلسي فاخر حتى زخرفة السقوف هي كذلك.



في القاعة العربية الأندلسية في المتحف التاريخي لأذربيجان

ومديرة المتحف في أيمن الصورة

وقد ملأوا القاعات العليا بمعروضات غير بالغة القدم، ولكنها ذات معنى خاص منها بعض الهدايا التي قدمها رؤساء الدول الأجنبية الذين زاروا هذا المتحف ومنهم الملك ظاهر شاه ملك أفغانستان سابقًا أهدى سجادة ثمينة، والرئيس الإندونيسي السابق سوكارنوا أهدى مجموعة (طقمًا) للشاي والرئيس المصري الأسبق جمال عبدالناصر أهدى هدية نسيتها وذلك عند مازار هذا المتحف في عام ١٩٥٦م.



المؤلف يدون كلمة في دفتر الزيارات في المتحف التاريخي لأذربيجان

وعلى يمينه الدكتور سعيد باديب

وقد أخبرونا بعد ذلك ان مقر المتحف كله كان قصراً لأحد كبار المسلمين اسمه (حاجي زين العابدين التقى) وأنه بناه في عام ١٨٩٥م.

وخرجنا من هذا المتحف معجبين وودعنا أهلُه وعلى رأسهم مديرته بحفاوة.

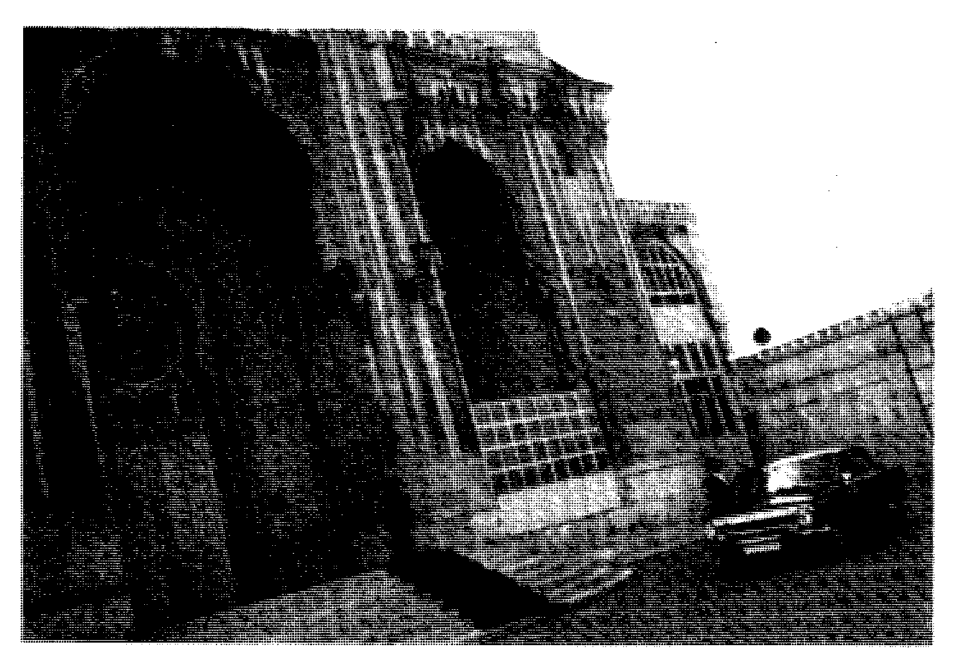
إلى جامع تازه بير :

انطلق الموكب مع شوارعِ مدينة باكو وقد أشرقت الشمس بعد أن كان الجو غائماً فابتهج القوم لذلك واخترق الموكب شوارع الأحياء القديمة العريقة من مدينة (باكو) وكلها تدل على أنها كانت مدينة غنية قوية قبل أن تبتلى بالشيوعية.

وصلنا إلى مسجد (تازه بير) ذكروا أن معنى الجملة هي (المقدس الجديد) وجدته هذه كانت عند بنائه في عام ١٩٠٥م أي منذ إحدى وثمانين سنة شمسية ويعادل ذلك أربعًا وثمانين سنة قمرية على وجه التقريب.

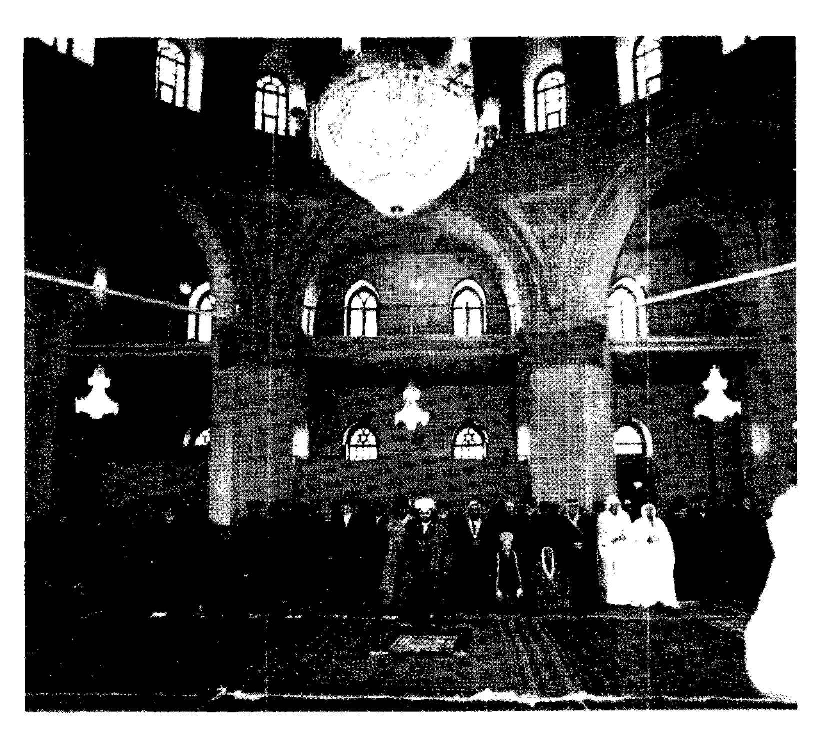
ووصلنا المسجد الذي تقع الإدارة الدينية في ركن من أبنية تابعة له سوف نزورها بعد صلاة الظهر فاستقبلنا فيه الشيخ (الله شكر باشا زاده) رئيس الإدارة الدينية لما وراء القفقاس.

ألفينا المسجد فخم البنيان، عالي المنار يقع وسط باحة واسعة فيها أشجار عالية وأماكن أخرى ملحقة به.



مدخل جامع تازه بير في باكو

وذكروا أنه بنته امرأة واحدة اسمها (نبات خانم) وهي من أهل هذه البلاد أذربيجان، وجدنا عدداً من الناس مجتمعين في المسجد وينبغي أن نذكر هنا أن أكثر المسلمين في مدينة (باكو) هم من الشيعة لذلك كان رئيس الإدارة الدينية هنا وهو الشيخ (الله شكر باشا زاده) من الشيعة وهي الإدارة الوحيدة من إدارات دينية أربع في الإتحاد السوفيتي كل الذين على رأسها هم من أهل السنة لأن أهل السنة في سائر أنحاء الاتحاد السوفييتي يؤلفون الأغلبية المطلقة من المسلمين.



الوفد يؤدي تحية المسجد في جامع تازه بير

وكان المسلمون قد أخبروا بقدومنا من قبل ولذلك عندما أدينا تحية المسجد ركعتين جاءوا للسلام على الوفد بصفة منظمة في صف طويل واحداً بعد الآخر وبعد لبث قليل في المسجد أذن المؤذن من مكانه خلف الإمام مباشرة لصلاة الظهر وتقدم لإمامة الناس في الصلاة الشيخ (الله شكر باشا زاده) ويسمى هنا (شيخ الإسلام) دون غيره من رؤساء الإدارات الدينية في الإتحاد السوفييتي الذين يلقبون بالمفتي أو المفتين جمع مفتٍ وليس بلقب شيخ الإسلام.

أذن المؤذن وهو شيخ مسن يظهر أن عمره يناهز السبعين فأذن أذاناً شيعياً بدأه بدعاء بصوت أخفض من صوته بالأذان ثم ابتدأ الأذان بصوت أكثر ارتفاعاً فقال: الله أكبر أربع مرات ثم أشهد أن محمداً رسول الله مرتين كالمعتاد ثم (أشهد

أن مـولانا عليا ولي الله) مـرتين ولم يـقل قبـل ذكر اسـم الرسـول صلى الله عليـه وسلم (مـولانا) ثم (حي على الصلاة) مـرتين ثم (حي على الفلاح) مـرتين ثم (حي على خير العـمل) مرتين والله أكبر مرتين ثم أخـيراً : (لا إله إلا الله) مرتين وليس مرة واحدة كما هو المعمول به عندنا.

ثم أتبع ذلك بدعـاء كـرر فيـه الصلاة عـلى النبي صلى الله عليـه وسلم وأله ولم يذكر صـحابتـه، ثم أقام الصلاة بما لايـبعد كـثيراً عن الأذان وذلك بـعد أداء السنة ركعتين وقبل الدخول في الصلاة ذكر الإمام أنهم سـيجمعون الظهر والعصر فقلنا له إننا مسافرون يجوز لنا الجمع.

ومن غيـر المألوف عندنا أن تكون جميـع أعمال الصـلاة جهرية فـالقراءة رغم كوننا نصلي الظهر والعصر هي جهرية والدعـاء جهري حتى في السجدتين وكان المؤذن يقوم بدور المبلغ ويجهر بهذه الأدعية والأذكار بعد التكبير.



الصلاة في جامع تازه بير في باكو

وبعد الصلاة تكلم الشيخ (الله شكر باشا زاده) فقدمنا إلى الحاضرين وأوضح لهم أننا وفد من رابطة العالم الإسلامي قدمنا من مكة المكرمة للقاء بالإخوة المسلمين في الاتحاد السوفييتي والعمل على توثيق عرى التعاون معهم.

ثم طلب مني أن ألقى فيهم كلمة فألقيتها موجزة بينت لهم فيها الغرض من وصولنا إلى هذه البلاد ومهمة رابطة العالم الإسلامي الأساسية وكيفية التعاون بين المسلمين.

وقد ألقيتها بالعربية وترجمها إلى اللغة المحلية الأخ (صابر حسين) مدير مكتب العلاقات الخارجية بالإدارة الدينية هنا وهو يعرف العربية جيداً لأنه تعلمها في هذه البلاد ثم ابتعث للعمل في بعض البلدان العربية ومنها اليمن مرافقاً ومترجماً لبعض الهيئات السوفييتية وقد كانت صحبته مفيدة لي بعد ذلك وطلبت أن يكون معي في سيارتي حتى أحصل منه على الإجابات عما أود الاستفسار عنه من أمور المسلمين خاصة ومن أمور البلاد عامة.



المؤلف يلقى كلمة في مسجد تازه بير في باكو وعلى يمينه

الأستاذ صابر حسين يترجم للغة الأذربية

في مقر الإدارة الدينية :

ذهبنا سيراً على الأقدام إلى مقر الإدارة الدينية لما وراء القفقاس وهذه التسمية سماها بها المسئولون في مجلس شئون الأديان الملحق بمجلس الوزراء المركزي في موسكو فهي بالفعل تقع وراء جبال القفقاس لمن يكون في موسكو ولكنها بالنسبة إلينا ومن يكون في بلادنا العربية تقع دون جبال القفقاس إذْ تمتد صلاحية هذه الإدارة أو لنقل تتبعها الشئون الإسلامية في جمهورية أذربيجان السوفيتية هذه التي عاصمتها (باكو) وكذلك في جمهورية جورجيا وأرمينيا السوفيتيين أيضاً.



في مكتب الإدارة الدينية لمسلمي ما وراء القفقاس مع الشيخ (الله شكر باشا زاده)

ألقى الشيخ (الله شكر) كلمة ترحيبية بالوفد على مأدبة غداء وجدناهم وضعوا مقدمات المائدة عليها فرحب بقدوم وفد الرابطة إلى الاتحاد السوفييتي وبالأخص إلى جمهورية أذربيجان وقال: إن المسلمين في الاتحاد السوفييتي كانوا يتطلعون

منذ زمن طويل إلى مثل هذه الزيارة وقد كنتم تسمعون عن مسلمي الاتحاد السوفييتي وأعمالهم ونشاطهم والآن أنتم تشاهدون حياتهم على الطبيعة وكما سبق أن قلت لكم بأن الزيارات توثق الصلات والمعرفة وتبادل الآراء والأفكار يخدم المسلمين، والمسلمون في الاتحاد السوفييتي يسألون عن المناطق المقدسة وعن إخوانهم في الحرمين الشريفين وعلى هذا كل مايعود الحجاج من الديار المقدسة يشرح الحجاج لهم عن تلك الأماكن الطاهرة وعن إخوانهم في الدين ومن هذه الجوانب التي ذكرتها فإن زيارتكم مهمة جداً لنا في الاتحاد السوفييتي ولكم باعتبار اهتمامات الرابطة بالمسلمين وأحوالهم في العالم.

الإدارة الدينيه لمسلمي ما وراء القفقاس هي إحدى الإدارات الدينية الأربع للمسلمين في الاتحاد السوفييتي وأعتقدبأن أخي الشيخ طلعت تاج الدين قد بين لكم نشاط الإدارات الدينية وأعمالها وقد تختلف هذه الإدارة عن الإدارات الدينية الثلاث الأخرى ذلك لأنها تشرف على المسلمين الشيعة الجعفريين حيث أن أغلبية سكان أذربيجان هم من الشيعة الجعفريين وهناك أقلية من السنة وتتكون هذه الإدارة من سبعة قضاة منهم ثلاثة من السنة وقد توفي رئيس جماعة السنة منذ شهرين.

قبل الثورة الشيوعية في أذربيجان كانت الخلافات المذهبية والعداوات الطائفية تمزق وحدة المسلمين وكان المسيحيون وهم قلة يسيطرون على الأمور في أذربيجان، وأصبح الآن الجميع يتمتعون بالحرية والاحترام المتبادل، وذلك لأن دولة الاتحاد السوفييتي مع أنها لا دينية فالدين منفصل عن الدولة والتعليم إلا أنها أصدرت قراراً خاصاً بحرية الفرد في الاعتقاد بأي دين، ووفرت للأديان كلها حقوقا متساوية وفي ظل هذه الحقوق المتساوية للأديان ظهر التقارب بين الأديان والمذاهب وبعد أن كانت هناك عداوة بين الشيعة والسنة أصبح الجميع يتبادلون الاحترام والإخاء ولم نصل إلى هذه المرحلة بدون صعوبات ومتاعب ولكن بسبب التفاهم بين ممثلي المذهبين فأصبح ذلك ممكناً فالشيعة والسنة يصلون في

مسجد واحد، وقد كان معكم في المسجد، سنيون وشيعة يؤدون صلاتي الظهر والعصر جماعة في صفوف واحدة كما أن الطلاب الشيعة الذين نرسلهم إلى بخارى وطشقند يدرسون في مدارس أهل السنة، كما يدرس طلابنا القرآن الكريم في شهور رجب وشعبان ورمضان.

وعلاقتنا الخارجية مع الهيئات والشخصيات الإسلامية طيبة جداً وتزداد صلاتنا مع المسلمين في العالم سنة بعد سنة ونرجو الله تعالى أن يقوى ويوثق علاقتنا لما فيه خير الإسلام والمسلمين.

الحرب بين العراق وإيران المستمرة منذ عدة سنوات أزهقت أرواح المسلمين في كلا البلدين الشقيقين وراح ضحيتها أكثر من مليون مسلم ومنهم أخوة لنا في الجزء الجنوبي من أذربيجان كما أنهم إخوان لنا في العقيدة وهذه المعارك الدامية تهدد السلام العالمي.

كما نرى أن إسرائيل قد استفادت من الخلافات العربية على توطيد كيانها والإستيلاء على الأراضي المحتلة في فلسطين.. ولا مناص من مقاومتها من تعاون تام مع العرب والمسلمين.

وفي هذه الأيام ضربت أمريكا الإمبريالية ليبيا ظلماً وعدواناً وقد استنكرنا هذا العداون الغاشم كما شجبت الحكومة السوفيتية هذا الإعتداء الإمبريالي على ليبيا.

وفي سبيل الدعوة إلى تحقيق السلام يرغب المسلمون في الاتحاد السوفييتي أن يعقدوا مؤتمراً إسلامياً عالمياً في باكو في أواخر هذا العام وأعتقد أن الشعب السعودي ورجال الرابطة يحبون السلام أيضاً وقد عرفت ذلك من خلال زياراتي للأراضي المقدسة وقد زرتها أربع مرات، لذا أنا مطمئن ومتفائل بأنكم تتجاوبون معنا وتشتركون في المؤتمر وأنا كزعيم للسملين في هذه البلاد كما أني منظم المؤتمر المذكور أدعوكم للمشاركة في المؤتمر وسأوجه الدعوة الرسمية إلى الرابطة للحضور والمشاركة وقد طلب رؤساء الإدارات الدينية الإسلامية من وفد الرابطة نقل دعوتهم لحضور المؤتمر المذكور إلى كل من :

١ – معالي الدكتور/ عبدالله عمر نصيف الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي.

٢ – معالي الدكتور/ أحمد محمد علي رئيس البنك الإسلامي للتنمية.

٣ – دولة الدكتور معروف الدواليبي.

وهذا المؤتمر يعقد من تبرعات المسلمين في الاتحاد السوفييتي، كما أن رواتبنا ورواتب العاملين في الإدارات الدينية وأئمة المساجد هي من تبرعات المسلمين، ذلك لأن الدين منفصل عن الدولة والتعليم في الاتحاد السوفييتي ويعتمد المسلمون على أنفسهم في نشاطاتهم الدينية وتوفر الدولة لهم الحرية لممارسة الشعائر الإسلامية.

وقد أجبته على كلمته بالشكر والثناء على الترحيب الحار والاستقبال الممتاز الذي حظي بها وفد الرابطة الذي قدم إلى الاتحاد السوفييتي تلبية لدعوة الإدارات الدينية الإسلامية التي وجهتها إلى الرابطة باسمهم المفتي الدكتور شمس الدين بابا خانوف.

كما شكرته على المعلومات التي قدمها عن المسلمين ونشاطهم في الاتحاد السوفييتي مما يدل على غيرته الإسلامية ورغبته الأكيدة في توثيق الصلات الأخوية لخدمة الإسلام والمسلمين.

وقلت بأن المسلمين يشكلون أقلية في الاتحاد السوفييتي لذا عليهم التعاون والعمل المشترك وخاصة أن المسلمين السنة والشيعة متفقون على أركان الإسلام الخمسة وهي الأساس الذي يقوم عليه بناء الإسلام وأن الاختلافات الأخرى لاينبغي أن تؤثر في مسيرتهم الإسلامية لأنها مما يمكن بحثه والاتفاق على رأي حوله.

وقد شاهدنا المسلمين في مساجدهم وعرفنا نشاطهم وسننقل انطباعاتنا إلى إخوتنا المسلمين في أنحاء العالم عبر المنظمات والهيئات الإسلامية التي تشترك في رابطة العالم الإسلامي التي نمثلها.

أما موضوع انفصال الدين عن الدولة في الاتحاد السوفييتي فهذا أمر قائم في بعض الدول التي فيها مسلمون كالهند ومعناه اعتماد المسلمين على أنفسهم في نشاطاتهم الدينية والمحافظة على دينهم من غير تدخل من الدولة ونرجو أن يستفيد المسلمون في هذا الأمر على تنشيط وزيادة أعمالهم الإسلامية بما يعينهم على تربية أجيالهم القادمة على الدين الحنيف وتعميق معرفتهم بالإسلام.

وقال الشيخ (الله شكر باشا زاده) في التعقيب على كلمتي: إن الجميع يعيشون في أذربيجان بانسجام ويؤدون شعائرهم الدينية بل ويتعاونون على أدائها من دون مشكلات سببها الاختلاف المذهبي.

وقال إن هناك في جمهورية أذربيجان مناطق جميع سكانها المسلمين من أهل السنة وسوف نزور بعضها فيما بعد وتحتاج إلى تخصيص يوم كامل لأنها تبعد عن (مدينة باكو) بما يزيد على ستمائة كيلو متر.

ثم تكلم عن المساجد في (باكو) فذكر أن في مدينة باكو ستة مساجد إضافة إلى أن عدداً كبير من الحسينيات توجد في المدينة والقرى التابعة لها وهي جمع حسينية وهي بمثابة المسجد الصغير الذي يقيمه الشيعة وتوجد منه أعداد في المناطق التي يعيش فيها الشيعة في بلادنا كالأحساء والقطيف.

وجدير بالذكر أن سكان مدينة (باكو) يبلغون مليوناً وسبعمائة ألف نمسة وأن سكان جمهورية أذربيجان كلها يناهز عددهم سبعة ملايين نسمة.

حديقة الاستراحة:

بعد مائدة الغداء الحافلة التي أقامها الشيخ (الله شكر) باسم الإدارة الدينية التي يرأسها وتناول الغداء معنا عدد كبير من أهل البلاد والمرافقين غادر الموكب مقر الإدارة الدينية متجهاً إلى (تشانيراكان) أو «حديقة الاستراحة» كما ترجموا لنا معنى اسمها وهي تلة عالية لم تعد كلها حديقة الآن لأن بعضها أنشئت عليه أبنية ومحلات عامة وكانت قبل ذلك حديقة طبيعية عامة.



منظر لمدينة باكو صورة التقطها المؤلف من المنطقة المرتفعة

وتقع على تلة عالية ترى منها مدينة باكو وهي تمتد على شاطئ بحر قزوين في منظر بديع إذ يقع قلب المدينة الفاخر القديم مابين هذه التلة وشاطئ البحر.

وكان يرافقنا أيضاً الأخ (رفيق عبد اللايوف) أي رفيق بن عبدالله لأن (أوف) معناها باللغة الروسية ابن وتقع في آخر الاسم مثلما هو موجود في اللغة التركية حيث يجعلون كلمة (أوغلو) التي هي مثل كلمة (ابن) بالعربية أو (أوف) بالروسية في آخر الكلمة فعلى سبيل المثال اسم هذا الرجل إذا ترجم إلى التركية هو (رفيق عبدالله أو غلو) وهو رفيق بن عبدالله بالعربية، وهو ممثل مجلس شئون الأديان في جمهورية أذربيجان هذه ومن عادة بعض المسلمين من كبار الموظفين الذين لهم علاقة بالإدارة المركزية في موسكو أن يذكروا أسماءهم وفق الطريقة الروسية التي تلحق كلمة (أوف) في آخر الاسم ولو كانت الطريقة الأصيلة في بلادهم التي لها لغتها الخاصة تقتضي غير ذلك.

وقد استمر (رفيق عبدالله يوف) هذا في مرافقتنا طيلة إقامتنا في جمهورية أذربيجان مثلما فعل زميل له في جمهورية أزبكستان التي قدمنا منها إلى أذربيجان وذلك لكون زيارة وفدنا ذات صبغة دينية ومجلس شئون الأديان في الاتحاد السوفيتي الذي يقع المركز الرئيسي له في موسكو لأنه ملحق بمجلس الوزراء السوفييتي له فروع وممثلون في جميع جمهوريات الاتحاد السوفيتي ومن أهم ماتفعله هذه الفروع مراقبة تطبيق السياسة التي يرسمها هذا المجلس وعدم خروج المسئولين في الإدارات الدينية أو غيرهم عليها.

قال الأستاذ (رفيق عبداللايوف) وهو يرانا نعجب بمنظر مدينة باكو من هذه التلة العالية المسماة بحديقة الاستراحة إن مدينة باكو كلها بين يديك.

فقلت: إن هذا صحيح، والتقطنا صوراً عديدة لهذا المنظر الجميل وبخاصة لمنارات المسجد الذي صلينا فيه ولمسجد آخر في المدينة كانت قبته ومنارته ظاهرتين.

وكانت الشمس مشرقة والجو صاحياً بعد برد وغيم في أول النهار فاستمتع الجميع بالسير في هذا المكان وثقلوا فيه.



صورة تذكارية فوق الهضبة في باكو من اليسار صابر حسين فالدكتور سعيد باديب فالمؤلف فالشيخ الله شكر باشا زاده فعبدالله يوف ممثل شئون الأديان في أذربيجان

وكان يشاركنا فيه طوائف من الناس من المتنزهين والمتفرجين من سائر الأعمار في هذا اليوم الأحد الذي هو يوم العطلة الأسبوعية الوحيد في الاتحاد السوفييتي لأن يوم السبت هنا هو يوم عمل ماعدا سبتًا واحدًا معينًا من كل شهر وكثيرًا مايعمل فيه الناس أيضًا متبرعين بطلب من السلطات الرسمية التي تحثهم على ذلك.

وقد ذكرني منظر مدينة باكو من هذه التلة العالية بمناظر مماثلة لمدن أخرى متفرقة في العالم منها مدينة دمشق عندما يطل عليها المرء من جبل قاسيون ومدينة سانتياقو عاصمة تشيلي في أمريكا الجنوبية وقد قلت في كتابي الذي كتبته عن الرحلة في الأرجنتين وتشيلي وأسميته (إلى أقصى الجنوب الأمريكي) إن منظر مدينة سانتياقو من جبلٍ يقع إلى الشمال منها يشبه تمامًا منظر مدينة دمشق من جبل قاسيون؛ وقد طبع ذلك الكتاب.

وهناك مدن عديدة أخرى يطل المرء عليها من جبل عالٍ يشرف عليها كذلك وقد فعلت ذلك عندما زرتها ومنها (كيتو) عاصمة الاكوادور و(بوغوتا) عاصمة كولومبيا.

إذ كان المعنيون بالسياحة في تلك الأقطار يجعلون زيارة التلة والجبل الذي يطل على المدينة جزءًا من البرنامج السياحي.

على شاطئ البحر :



جانب من قلب مدينة باكو

انحدر الموكب من حديقة الاستراحة إلى قلب مدينة باكو وكان القوم يشيرون إلى شاطئ البحر الموازي لقلب المدينة ويقولون إننا سنذهب إليه لتتفرجوا برؤية الشاطئ الذي هو شاطئ بحر قزوين.

ولم نطل مكثنا في وسط المدينة لأننا سبق أن رأينا جزءاً منه وإنما مر الموكب بشارع الشاطئ فطلبت منهم أن يوقفوا الموكب وأن يتيحوا لنا فرصة التمشي على الأقدام فيه لأن الشمس ساطعة والجو مناسب، ونحن غرباء عن هذه المدينة وربما لاتتيسر لنا زيارتها مرة أخرى والمرور سريعاً بالسيارات لايتيح لنا استجلاء المنطقة.

فكان ذلك إذ ترجلنا من السيارات وسط حشد من المواطنين الذين كان شارع الشاطئ على اتساعه وامتداده يغص بهم وهم من سائر الأعمار من رجال ونساء وأطفال.

مما جعلني التمس تعليلاً لوجودهم بهذه الكثرة في الشارع أو لنقل على شاطئ البحر ومع أن اليوم هو يوم الأحد يوم العطلة الأسبوعية الوحيد في الاتحاد السوفييتي فإنهم لايكونون بهذه الكثرة في هذه الساعة من اليوم المعتاد التي هي ساعة العصر فأرجعت ذلك إلى ضيق المساكن في الاتحاد السوفييتي مما يجعل العمال من رجال ونساء يحرصون على قضاء يوم العطلة خارج المنزل في الحدائق والمتنزهات وعلى شواطئ البحر بدلاً من البقاء في البيوت الضيقة التي يكونون قد ملوها.

ويذكر بهذه المناسبة أن الشعب السوفييتي بعامة الناس فيه لايعرفون السكن في الدارات «الفيلات» التي أخذت تنتشر في بلاد العالم القادر على بنائها ولايسكن فيها إلا بعض ذوي النفوذ وكبار الموظفين وعددهم محدود وإقامتهم فيها محدودة لأنهم يسكنون فيها ماداموا في العمل المرموق الذي أهلهم لسكناها فإذا تركوا ذلك العمل تركتهم (الفيلات) لأنهم لايتملكونها وإنما هي كلها مملوكة للدولة.



على شاطئ بحر قزوين في باكو

أخذنا نسير على شاطئ البحر في رصيف عريض وحتى إذا سار المرء في الشارع نفسه فإن عدد السيارات والمركبات هنا ليس كثيراً لذلك لاتزعج السائر على قدميه.

على يميننا البحر (بحر قزوين) الشهير الذي تقع عليه حدود عدة دول منها الاتحاد السوفيتي وإيران اللذان يتقاسمان بلاد أذربيجان فيقسمانها إلى قسم إيراني عاصمته (تبريز) وقسم سوفيتيي عاصمته (باكو) هذه.

وعلى يسارنا القسم الجيد من المدينة بعماراته ومنشآته وهو ينهض بعد شارع الشاطئ في قسم من أقسامه فيتسلق هذه التلة الجبلية العالية التي قدمنا من قسم منها قبل هنيهة في منظر جميل.



جولة على الأقدام في باكو

وشارع البحر هذا الذي تسمى العامة في بعض البلدان العربية أمثاله بكورنيش البحر هو واسع جيد في كل شيء ولكن بقية شوارع باكو هي أقل اتساعاً من شوارع رصيفتها (طشقند) عاصمة جمهورية أزبكستان فتلك أصابها الزلزال في عام ١٩٦٩م ودمر أكثر أبنيتها القديمة فأبعدوا أنقاضها ووسعوا شوارعها بل خططوها تخطيطاً جديداً أرادوه إصلاحاً وهو في نظرنا وأمثالنا إصلاح لا يبعد كثيراً عن الإفساد لأنه أزال الطابع الإسلامي العريق لتلك المدينة المسلمة بل ذات التاريخ الإسلامي المذكور.

وبنوا في طشقند أبنية سكنية حديثة ذات شقق ضيقة بديلة من البيوت الشعبية المنفردة ذات الطابع الأثري الإسلامي الجميل التي دمر بعضها الزلزال.

النـــاس :

كنا نسير على شاطئ البحر مع الرصيف الجيد العريض الذي تزينه مقاعد عامة حسنة المظهر قد امتلأت أو كادت تمتلئ بالناس وكنا في نشوة التفرج برؤية الشيء الجديد في هذه المدينة الجديدة بالنسبة إلينا وكان الأهالي من سكان المدينة أكثر تفرجاً برؤيتنا من تفرجنا برؤية مدينتهم.

فهم من الناحية المظهرية ليس فيهم مايسترعى انتباه السائح العربي لأنهم يعتبرون من البيض غير الشقر فألوانهم هي ألوان العرب الشماليين من لبنانيين وسوريين وتونسيين - مثلاً - وحتى تقاسيم وجوههم وملامحهم لاتبعد عن ملامح هؤلاء العرب كثيراً.

وليس فيهم شبه من الإخوة المسلمين التركستانيين الذين كنا في بلادهم أمس لأن أولئك هم البخاريون الذين نعرفهم في بلادنا.

وهؤلاء الأذربيجانيون - وإن كانت نسبتهم بالآذريين بدون جيم هي الأفصح- هم أقرب إلى الملامح العربية حتى من الإخوة الأتراك الذين يقطنون في الجمهورية التركية التي هي أقرب في الموقع إلى البلدان العربية من بلادهم هذه أذربيجان.

ذلك بأن تركيا لاتزال فيها طائفة من ذوي الملامح التركية الأصيلة التي هي ملامح التركستانيين أو البخاريين وبخاصة من بين سكان الأناضول.

وحتى ملابس القوم هنا فإنها الإفرنجية المعتادة التي ليس فيها مايلفت النظر.

وأما أزياء النساء فإنها أزياء الأوربيات التي لايقصد بها الإغراء وإظهار الجسد فهي تميل للطول ولا تتنوع كثيراً وأكثر مايجمع بينها هو أنها نظيفة.

فالنظافة في الملابس موجودة هنا في أثواب الجميع من رجال ونساء وأطفال، وكان منظر وفدنا غريباً وهو ينقل الخطا - جمع خطوة - بين أردان الأثواب العربية الفضفاضة التي لم نفارقها ولم تفارقنا طيلة سفرنا في الاتحاد السوفييتي حتى في مطار موسكو اظهاراً للغرض الأساسي من زيارتنا لهذه البلاد السوفييتية.

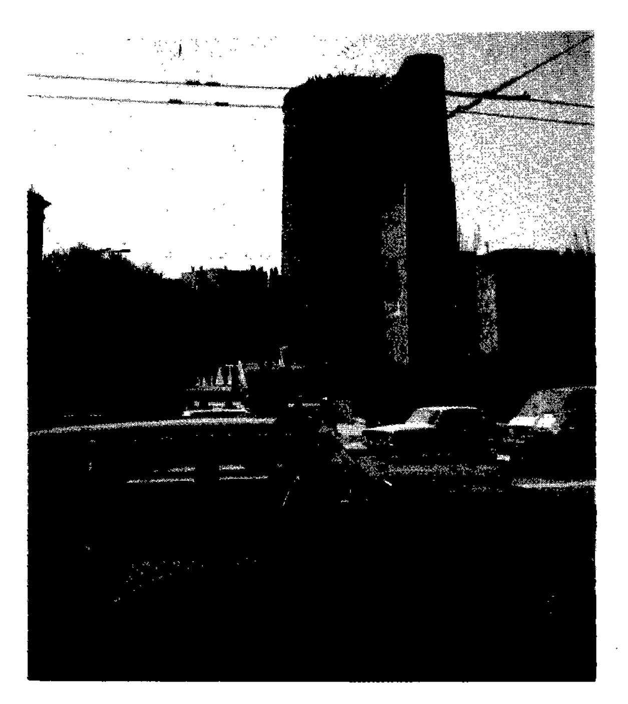
كان منظر الوفد غريباً على أبصار هؤلاء القوم وربما على بصائرهم لأن أكثر العرب الذين يزورون بلادهم يرتدون الزي الإفرنجي الذي أصبح زياً عالمياً الآن.

وقد خيل إليّ أن منظرنا بملابسنا العربية صار يزداد غرابة لأن العيون التي تلاحقه صارت تزيد أكثر فأكثر كلما أمعنا في المشي.

وكان مما يكمل الصورة هنا أن ملابس اثنين من رؤساء الإدارات الدينية في الاتحاد السوفييتي وهما الشيخ (الله شكر) رئيس الإدارة الدينية في هذه البلاد والشيخ طلعت تاج الدين رئيس الإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوربي وسيبريا كانت فضفاضة مثل ملابسنا وإن كانت أقل غرابة منها في أنظارهم.

وكأنما أرادت أسراب من طيور النورس المرح بأجنحتها البيض أن تشارك في هذا الاستعراض للأزياء فتزين الألحاظ حين تنشر أجنحتها الشراعية التي لاتبعد عن منظر الأشرعة الصغيرة على مدى البصر من صفحة البحر.

برج العذراء:



برج العذراء

كنا نتأمل الأبنية التـي تقع عليها أنظارنا من قلب المدينة ونحن نـسير الهوينا على شارع الشاطئ وأكثرها أبنية قديمة فاخرة من عهد ماقبل الشيوعية، ورأيت واحداً منهـا أشبه مايكون بـالقلعة القـوية من قلاع القرون الـوسطى وبخاصة فـي أبراجه التي شيدت عـلى طراز الأبراج في قلاع الصليـبيين فسألت عنه فـأجابوا إنه (برج العذراء).

فقلت لهـم : إن برج العذراء الـذي نعرفـه إنما هو فـي السماء فـهو أحد الـبروج التي هي المنازل في السماء ويسمى الآن برج السنبلة.

فقالوا : هذا صحيح ولكن هذا المبـنى الذي لايزال للآن يسمى بذلك لأن إحداهن وهي عـذراء رقيقة الـقلب مـشبوبـة العواطف قـد أحبت أحـد الشبـان غير أن أهلـها وأهل مـجتمـعها مـنعـوها من الـزواج بفتـى أحلامهـا فصعـدت إلى قـمة هذا الـبرج المرتفعة وألقت بنفسها على الأرض جثة هامدة.

قالوا : ففقدت حياتـها ولكنها أكسبت هذا البرج لقباً ممـيزاً له عن غيره هو (برج العذراء) الذي صار يلقب به منذ ذلك الوقت ومايزال.

في ضواحي باكو :

لحقـت بنا الـسيـارات فاستـأنف الموكـب سيـره من شارع الـشاطئ قـاصداً جـهة الشرق من مدينة (باكـو) وذلك لزيارة بلدة صغيرة تبعد عن المديـنة سبعة وأربعين كيلو متراً من هذه الجهة وفيها مسجد سيزوره الوفد.

سلـك الموكـب شارعـاً واسـعاً أيضـاً عـلى جـانبـيه أبـنيـة جيـدة متـعددة الـطوابـق (عمـارات) وتبـين بعد ذلـك أن الأبنيـة في المـدينة أكـثرهـا جيد المـظهر وأغلبـه في داخلـها مما كان قبـل حكم الشـيوعية حـافظوا علـيه وصـانوه وبـعضها أبـنية حديـثة متعـددة الطوابق حكومـية تتألف مـن شقق سكنيـة صغيرة بنـتها الحكومة لـلإسكان الشعبي العام وهي في ضواحي المدينة ولاتكاد توجد في داخلها.

كما اتضح لنا أن استقامة شوارع المدينة هو الطابع العام، إضافة إلى شيء آخر ليس خاصاً بها ألا وهو كثرة التشجير فيها وأكثر الأشجار التي في الشوارع والحدائق هي من الأشجار المثمرة النافعة.

ومن النظرة العامة يمكن أن توصف مدينة (باكو) بجملة واحدة بأنها مدينة فخمة وبخاصة في ماضيها العتيد الذي حاول حاضرها أن يبقي عليه ففعل ولكنه أبقى على شيء من مظهره دون روح المنافسة التجارية والإبداع الشخصي المستقل عن التوجيه بل التسيير الحكومي الذي يقضي على روح الاختراع والابتداع.

وأينما اتجه المرء من ضواحي المدينة في الجهة التي مررنا بها يجد أبنية حكومية حديثة متعددة الطوابق للإسكان العام.

وكلها بنيت بعد الثورة الشيوعية ولاتزال تبنى لأنها المنازل الوحيدة التي تمكن إقامتها في المدن السوفييتية ولايسمح في هذه المدن ببناء بيوت منفردة للسكن الشخصي.

وهذه العمارات السكنية الحكومية الحديثة هي خالية من أي طابع خاص يكسبها جمال المظهر أو يعطيها النكهة الخاصة التي تكون على الأبنية ذات الطراز الأصيل.

مدينة الزيتون:

أسميت هذه المدينة عند الإخوة المرافقين بمدينة الزيتون وذلك لكون الأشجار الغالبة على أشجار الشوارع فيها هي الزيتون وقد مررت بشارع غرسوا فيه أشجار الزيتون على الجانبين وفي وسط الشارع الذي يفصل بين السيارات الذاهبة والسيارات الآيبة.

وأشجار الزيتون هذه هي أكثر الأشجار المثمرة ظهوراً في شوارع (باكو) وإلا فإنها ليست الوحيدة بينها إذ تشاركها أشجار التوت وأشجار مثمرة أخرى.

وبهذه المناسبة أخبرنا الاخوة المرافقون أن يوم جمع الزيتون من شجره أي التقاطه منها هو يوم مشهود في المدينة تعطل فيه المدارس التي يذهب تلاميذها للمشاركة في جمع الزيتون من شجره.

مع أن الزيتون هذا كله مثل أكثر الأشياء العامة يعتبر ملكًا للدولة ويسلمه ملتقطوه ومنهم تلاميذ المدارس إلى الحكومة.

وهذا الذي ذكرني بغرس النخيل في معظم المدن في بلادنا ولكن ثمره أو تمره على وجه الدقة يذهب دون أن ينتفع به الانتفاع المجدي لأن بعض الناس وبخاصة من الأجانب الذين قدموا إلى بلادنا من أجل العمل يسارعون إلي أخذ التمر قبل أن ينضج ولايحسنون التقاط مانضج منه فيضار العذق الذي فيه التمر من ذلك ويموت أكثره بسبب الجهل وعدم المبالاة من أولئك اللاقطين غير المرخص لهم.

ثم خرج الطريق من المدينة ممتدًا في استقامة ظاهرة، وقد أخبرونا أن هذه المدينة كثيرة المتنزهات على حد قول ابن بطوطة في مدن رآها رغم كونها بحرية ممتدة على بحر قزوين وكونها أيضًا مدينة نفطية بل هي عاصمة النفط في الاتحاد السوفيتيي.

وبهذه المناسبة سألتهم عن المياه العذبة من أين يأتون بها لمدينتهم البحرية هذه وعما إذا كان يوجد فيها نهر ؟ فأجابوا بأنه لايوجد في المدينة نهر يصل إلى داخلها وإنما يوجد نهران يجريان غير بعيد منها، وتجلب المياه العذبة إلى المدينة من خارجها من مسافة غير بعيدة في أنابيب كبيرة.

ولاحظنا أن سيارات الركوب الصغيرة الخاصة موجودة في الشوارع الرئيسية التي تخترق ضواحي المدينة أكثر مما هي عليه من حيث العدد في مدينة طشقند عاصمة جمهورية (أزبكستان).

وعندما خرجنا من المدينة لاحظنا وجود بيوت منفردة مكونة من طابق واحد وذات سقوف مسنمة وهي مطلية بطلاء أبيض يشبه الجص وذكروا أن بعض هذه البيوت يملكها أشخاص إذ يبيح القانون للشخص أن يملك بيتًا واحدًا مناسبًا لعدد أفراد أسرته.

منظـــر نــادر :

رأينا هنا منظراً نادر المثيل في الاتحاد السوفييتي وهو منظر رجل يمد يده بقبعة مقلوبة على الطريق وذلك يرمز إلى السؤال والاستجداء وهو منظر نادر إذ بلاد الاتحاد السوفييتي يقل فيها السؤال والاستجداء ولايكاد المرء يرى فيها الشحاذين.

وذلك لأن الحكومة تمنع الاستجداء منعاً باتاً وهي توجب العمل على كل شخص قادر على العمل، كما أن فيها ملاجئ للعجزة الذين لايستطيعون العمل.

إضافة إلى أن الخبز الذي هو قوام العيش موجود في هذه الأزمنة الحديثة بوفرة وبثمن رخيص، على أن بعض المرافقين أراد أن يلطف من الموضوع فقال إنه ربما كان هذا الرجل يريد من أصحاب السيارات أن يحملوه وهو يفعل ذلك إشارة إلى رغبته تلك وليس من أجل الإستجداء.

ورأينا أيضاً منظراً نادراً آخر وهو منظر مكان منخفض فيه مستنقع ماء أخضر اللون من طول مالبث ومن شدة تغير الماء فيه، ولا أدري أمتخلف هو من ماء المطر أم متسرب من بعض الأماكن المرتفعة.

وبعد ذلك رأينا بئراً من آبار البترول قد ركبت عليها مضخة وهي تعمل في ضخ البترول واستخراجه من باطن الأرض إلى أنبوب متصل بالبئر يذهب بعيداً.

ثم كثرت مناقع المياه على أيمن الطريق، وتجدر الإشارة إلى أن المنطقة واقعة غير بعيد من شاطئ البحر وأنها غير مرتفعة فربما كان السبب فيها هو قرب الماء في جوف الأرض من السطح لهذا السبب.

ومنظـر غـريـب أيضـاً :

والمنظر الغريب الآخر هو منظر مستنقعات نفطية رأيناها إلى جانب الطريق وهي أماكن فيها تجمعات من النفط الخام الذي يبدو وكأنه القار الأسود قد تجمع على وجه الأرض وقلما يراه المرء إلا وبجانبه أنابيب ضخمة أو متوسطة الحجم من الأنابيب التي تحمل النفط إلى المصافي وإلى موانئ التصدير على البحر والظاهر أنه متسرب من هذه الأنابيب.

وقد كنت رأيت مثله من الطائرة قبيل النزول في مطار (باكو).

ولاحظنا كثرة سيارات الركوب الصغيرة التي يملكها الأفراد في هذا الطريق وقد خرج أهلها للنزهة في هذا اليوم الأحد خارج المدينة وهو يوم كان أوله غائماً وصار الآن شامساً دفيئاً.

وكان موكبنا لافتاً للنظر إذ هو مؤلف من عدة سيارات تتقدمها سيارة عسكرية أظنها للشرطة على ظهرها الإشارة الحمراء وفيها النفير المميز للمواكب الرسمية وسيارات الإسعاف ونحوها وتلي السيارة العسكرية في السير سيارة رئيس الوفد وهي رسمية سوداء طويلة واضح من مظهرها أن الذين فيها هم من ضيوف البلاد المحتفى بهم.

لذلك رأينا كثيراً من أرباب السيارات الخاصة يقفون بسياراتهم إذا حاذيناهم، ويبعدون عن الطريق لتيسير مرور الموكب ومن لم يفعل ذلك بنفسه فإن السيارة العسكرية التي تتقدم الموكب تأمره بذلك - أي بالابتعاد عن وسط الطريق - فينصاع بسرعة وبدون تردد مما يدل على أن القوم قد اعتادوا الخضوع للأوامر الصارمة التي تفرضها الحكومة ولاتتوانى في تطبيقها.

والصور الفنية:

أوغل الطريق في الريف وبعد عن المدينة وقد أصبحت فيه أشياء لافتة للنظر من أهمها لوحات كبيرة على المنعطفات أو في الأماكن التي لاتسرع السيارات عند المرور بها في العادة بعضها تمثل العمال أو الفلاحين وبعضها تمثل المظاهر الصناعية في البلاد.

ومن أكثر الصور تكراراً أمام المنظر صورة (لينين) زعيم الشيوعية وهو الزعيم الذي طبق الشيوعية تطبيقاً في البلاد ورسخ أصولها فيها.

ولذلك يرى المرء صورته ظاهرة على الدوائر الحكومية المهمة وفي بعض الميادين والأماكن البارزة وذلك أيضاً لمناسبة قرب الاحتفال بعيد ميلاده الذي يقع في هذه الأيام.

وقد أصبحت أشجار الطريق غير مقتصرة على أشجار الزيتون التي لاتزال موجودة فيه ولكنهم غرسوا معها أشجار الأثل الأمريكي (الجازورينا) وأشجاراً برية أخرى.

وآبار البترول :

وظهرت آبار البترول في المنطقة بشكل كثيف حتى إن بعضها يعد بالعشرات إن لم يصل عددها إلى المئات.

وكلها تحتاج إلى الضخ فقد ركبوا فوقها آلات من آلات الضخ الكبيرة التي لاتفتأ تعمل في ضخ البترول وهي ترتفع وتنخفض من دون أن ترى عمالاً بجانبها.

ولايرى الناظر إليها شيئاً من البترول الذي تخرجه من باطن الأرض لأنه يسير في أنابيب قد ألفت شبكة ذاهبة في اتجاهات مختلفة وكلها على وجه الأرض وبعضها قد رفعت قليلاً عن وجه الأرض حتى لاتؤثر عليها الرطوبة ويلحق بها الصدى مع أنها مطلية بطلاء بني اللون.

وقد ذكرني منظرها هنا بمنظر مثيلات لها ولكن في مكان بعيد عن هذا المكان وفي ظل نظام للحكم مناقض للحكم الشيوعي الروسي في هذه البلاد.

ألا وهو مدينة لوس انجلوس في الولايات المتحدة الأمريكية حيث يرى المرء مثل هذه الآبار النفطية قد ركبت عليها المضخات التي تعمل آلياً مثل هذه الآبار الروسية.

وقد رأيتها في الطريق مابين مطار لوس انجلوس الدولي وقلب المدينة الكبيرة إلا أن المضخات الأمريكية أكبر من هذه الروسية وأكثر ضخامة.

ويمكن القول عن أبراج الكهرباء الكثيرة المنتشرة في هذه المنطقة من ريف مدينة (باكو) بإنها كثيرة ولكنها أصغر أحجاماً، وأقل ارتفاعاً من الأبراج الضخمة التي تنقل الكهرباء عادة في الولايات المتحدة الأمريكية.

بل إن هذه الأبراج الروسية هي أقل في الحجم وأقصر في الارتفاع من الأبراج التي تنقل خطوط الضغط العالي للكهرباء في بلادنا السعودية.

إلا أن الذي يلفت النظر هنا هو كثرة عددها مثل كون الآبار الارتوازية هنا التي ركبت عليها المضخات تلفت النظر بأعدادها الكثيرة.

ثم انحرف الطريق جهة الغرب الشمالي من عند مستديرة واقعة على مفترق الطرق وقد غرسوا في هذه المستديرة زهوراً مختلفة الألوان وكأنه لم يمر بها شتاء طويل.

بخلاف بعض الأشجار الموجودة على الطريق التي لم تستكمل أوراقها الأخضرار بعد.

وهذا الريف معمور وإن كان واضحاً أن الأهمية هنا إنما هي لحقول النفط وما تحتاج إليه مع انابيبها الكبيرة من مساحات.

وحتى الأعشاب البرية قد ازدهرت وصارت تشبه الربيع الجيد في بلادنا.

ورأيت محطة لبيع المحروقات وتكاد تكون المحطة الوحيدة التي رأيناها في هذه الجهة فمحطات الوقود هي أقل المرافق العامة رؤية في البلدان الشيوعية.

وعلى سبيل المثال كنا نسير مئات الكيلو مترات في الصين الشيوعية من دون أن نرى محطة واحدة من محطات بيع المحروقات وقد ذكرت ذلك في كتابي (داخل أسوار الصين).

وبهذه المناسبة سألتهم عن أسعار وقود السيارات عندهم فأخبروني أن ليتر البنزين المتاز سعره أربعون كوبياً وهو بمثابة السنتي للروبل أي جزء من مائة جزء من الروبل وأن ليتر البنزين غير المتاز يباع بثلاثين كوبياً وهذا يساوي بالصرف الرسمي للروبل حوالي نصف دولار أمريكي ولكنه ينزل في السوق السوداء إلى ربع هذا المبلغ.

وعلى ذكر السيارات التي هي كلها حكومية تصنعها الحكومة وتبيعها للشعب بموجب شروط معينة فإن النوعين الرئيسيين فيها هما لادا وهي روسية الصنع إلا أن أصلها إيطالي وتباع بمبلغ يتراوح بين سبعة آلاف وثمانية الآف روبل والثاني وهو الأكبر (فولجا) وتباع في حدود خمسة عشر ألف روبل.

ومن طريف المشاهدات منظر بقرة واحدة أجمع المرافقون على أنها بقرة شخصية أي ملك خاص لأحد الأشخاص أو لمجموعة من الأشخاص وليست من الممتلكات العامة للدولة وهذا أمر يستحق التنويه في بلاد شيوعية كل مافيها من الأشياء المهمة مملوك للدولة.

وقالوا بهذه المناسبة إن اللحم البقري يباع الكيلو منه بخمسة روبلات إذا كان لحماً شخصياً أما إذا كان لحماً تملكه الدولة فإنه يباع بنصف هذا السعر عادة.

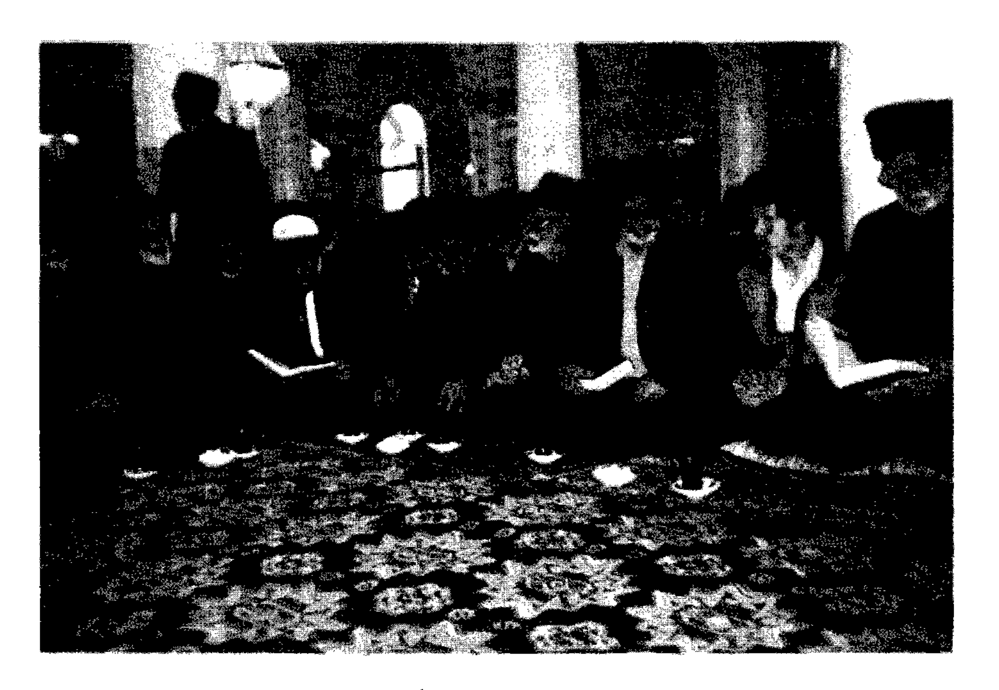
وذلك لكون اللحم الذي تبيعه الحكومة غير جيد ولأنها لاتبتغي الربح منه ولولا أنه أقل جودة من اللحم الشخصي - إن صح التعبير - لما أقبل الناس على شراء اللحم الشخصي بأغلى من سعر اللحم الحكومي بكثير إضافة إلى ما لم يوضحوه لي وهو أن اللحم الحكومي يكون عادة مقدراً بمقدار معين لكل شخص ولا أدري أهذا معمول به هنا أم لا.

قريـــة مشهـــد آغـــا :

وصلنا إلى قرية (مشهد آغا) وكان أول الأشياء لفتًا للأنظار اللباس الساترعلى النساء وبخاصة منهن الكبيرات في السن فهو عباءة وغطاء أسود يوضع على الرأس، وبعضهن كل جسمها مستور إلا الوجه والكفين.

وهؤلاء كلهن من المسلمات ومسلمو القرية أغلبهم من الشيعة ولذلك لم أعجب حينما قدموا إليّ رئيس لجنة المسجد وقالوا: اسمه (حاج كربلائي أسد الله).

وكان الموكب قد وقف في المسجد الذي يقع في فناء مكشوف متسع ووجدنا القوم قد صلوا العصر وكنا صليناها من قبل جمعاً مع الظهر.



بعض جماعة مسجد مشهد أغا في المسجد

يتصفحون المصاحف التي أهداها لهم وفد الرابطة

فجلسنا بجانب المحراب وقرأ أحد الأطفال آيات من القرآن فكانت تلاوته غير جيدة ثم تلا طفل آخر إحدى السور القصار فأداها أداءً متوسطًا فأخذ المصحف أحد الكبار وقد شاب رأسه فقرأ من المصحف قراءة متقنة.

وقد ألقيت في القوم كلمة مختصرة أوضحت فيها الغرض من زيارة وفدنا للاتحاد السوفييتي وبينت لهم أهداف رابطة العالم الإسلامي التي جئنا منها.



وفد الرابطة في مسجد مشهد أغا قرب باكو

ثم سعوا في إحضار الشاي وقد موه لنا في مكاننا من المسجد في كاسات زجاجية صغيرة كالتي نشرب بها الشاي في بلادنا وليس في أكواب من الصيني كما هي العادة الشائعة في أكثر بلدان العالم.

وكنت أتأمل القوم فأجدهم لايبعدون كثيراً في سحنهم عن الإيرانيين إلا أن فيهم مع ذلك شبهاً من أهل الخليج العربي لولا أنهم أقل سمرة منهم ولا أقول إنهم لاسمرة في ألوانهم بل السمرة موجودة ولكنها خفيفة مما حملني على سؤال الشيخ (الله شكر باشا زاده) عما إذا كانوا يعرفون أنه قد حدثت هجرات بشرية مباشرة من الخليج العربي إلى هذه المنطقة فقال: إن هذا جائز وإن كنا لانحفظ حدوث ذلك.

فقلت له : إن الشبه ظاهر فيما بينهم وبين الشيعة من العرب في جنوب العراق وفي الخليج العربي وقد ألح ذلك الخاطر عليّ في جامع (تازه بير) عندما رأيت القوم فيه ظهر هذا اليوم وفي هذه الساعة.

والغريب في الأمر أن سحن الشيعة في جنوب إيران وفي جنوب العراق وفي الخليج ظاهرة واضحة في وجوههم فالله أعلم من أين كان ذلك.

وحتى لغتهم إذا سمعها المرء منا فإنه لايكاد يصدق في سمعه بأنها هي اللغة التركية التي يسمعها من أفواه الترك أصلاً في تركستان الشرقية أو الغربية أو حتى في الجمهورية التركية، بل إنه يخيل إليه أنها لهجة من لهجات اللغة الفارسية مع أنها مشتقة من التركية وليست من الفارسية ولكن القوم يخرجونها حينما يتحدثون بها من مخارج اللغة الفارسية فتجدهم يشددون على مخارج بعض الألفاظ، ويفخمون بعض الحروف أو هذا مايعلق بسمع الغريب الذي يسمعها منهم لأول وهلة.



المؤلف يتكلم في مسجد مشهد أغا وعلى يمينه الأستاذ صابر حسين يترجم

وقد ودعنا القوم عند باب المسجد وأخبرنا المرافقون أننا سنعود من طريق أقصر من الطريق الذي سلكناه في القدوم.

وكان على رأس المودعين رئيس لجنة المسجد (مسجد جمعة مشهد أغا) الحاج كربلائي أسد الله وإمام المسجد (عظيم بن حاج موسى) وقد أخبرونا أن المسجد بني في عام ١٨٨٥م أي قبل قيام الشيوعية في الاتحاد السوفييتي بزمن وجدد بناؤه في عام ١٩٥٥م أي بعد الشيوعية وقد أهدينا للمسجد مصحفًا شريفًا من طباعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة المنورة.

المقر الصيفي للإدارة الدينية:

سلكنا طريق غير الذي جئنا منه وذلك لأمر لم نكن نعرفه من قبل وهو أن رئيس الإدارة الدينية الشيخ (الله شكر باشا زاده) ولقبه هنا (شيخ الإسلام) كما قدمت أخبرنا أننا ذاهبون إلى شاطئ البحر في نزهة تحلو في هذا اليوم الشامس من هذا الفصل الربيعي الممتع.

فشكرته على ذلك وقلت له: هذا هو مانريده.

وانطلق الموكب مع طريق حافل بآبار النفط الذي تشتهر به هذه المدينة (باكو) وقد ركبوا عليها المضخات التي تعمل باستمرار وأخبرونا أنها لاتفتر عن العمل طيلة الأربع والعشرين ساعة.

حتى وصلنا إلى منطقة في شاطئ البحر تبعد ٣٢ كيلو مترًا عن المدينة وتنتشر فيها منازل قليلة وسط أحواش أي أفنية مكشوفة وتسمى منطقة (بليك).

والمنطقة ليست فاخرة بمعنى أن البلدية لم تولها العناية اللازمة في التحسين والتجميل وكنا نظن أننا سنبقى بجانب الشاطئ في منطقة مكشوفة غير أن الأخ الشيخ (الله شكر) قاد الموكب إلى وسط هذه المنازل المتباعدة فسلك شوارع غير واسعة حتى وقف عند بناء أشار إليه وقال: هذا هو المقر الصيفي للإدارة الدينية لمسلمي ماوراء القفقاس.

دخلنا من الباب الخارجي إلى فناء مكشوف أفضى بنا إلى درج يصعد إلى الطابق الثاني من المبنى الواقع في ركن من الفناء وتقدمنا الشيخ (الله شكر) وهو يشير إلى غرف هناك فيها أسرة موضوعة عليها الألحفة والأغطية الثقيلة ويقول: هذا منزل آخر إنه يمكن لضيوفنا أن يسكنوا فيه ففيه كل مايحتاج إليه الضيف.

وبعد التجول في هذا المنزل ذي الطابقين قادنا مضيفنا إلى مائدة طويلة وجدناهم قد صفوا فوقها المقبلات أو المقدمات وهي هنا البطارخ أي الكافيار وهو بيض السمك الروسي الشهير الذي لاتنتجه بلاد الروس الأصلية وإنما يؤخذ من سمك يعيش في بحر قزوين هذا الذي نشاهده الآن ولايوجد في غيره من البحار ويسمى ذلك السمك بسمك الكافيار وهو أسود اللون.



على مأدبة الشيخ الله شكر باشا زاده في مقدمة المائدة الداعي

على يمينه المؤلف فالشيخ طلعت تاج الدين فالدكتور سعيد محمد باديب

ومعه بيض آخر لسمك آخر له لون آخر وهو اللون الأحمر بخلاف (الكافيار) المشهور الذي لونه أسود.

ومع الكافيار أنواع من الجبن والزبد الذي يأكلون به (الكافيار) وحلوى وأنواع من البقول الخضراء ومنها بصل أخضر وبقل يشبه شكله شكل الجرجير ولكن طعمه شبيه بطعم الرشاد أو حب الرشاد كما تسميه العامة في بعض البلدان العربية ويسمونه هنا (الوزيري) ونوع من الكراويا أو الحلوة كما نسميها في بلادنا وفلفل أخضر كبير غير حريف الطعم وأنواع من الخبز.

ومع المقدمات هذه زجاجات المشروبات من ماء معدني فيه غاز ونوع خالٍ من الغاز.

وأهم من ذلك بالنسبة إلينا في هذه الساعة الشاي الذي أحضروه كما اعتادوا أن يصنعوه وهو كالشاي في بلادنا وتضيف إليه من السكر ما شئت بخلاف أهل الصين وأهل تركستان الشرقية الذي لايضعون في الشاي سكرًا أصلاً وإنما يشربونه هكذا ساذجًا خاليًا من السكر.

والقوم هنا قد أحضروا السكر على عادتهم نوعين أحدهما المعتاد الدقيق الناعم والثاني سكر القوالب ولاحظت أن بعضهم لايضع السكر في فنجان الشاي وإنما يأخذ قطعة من سكر القوالب فيضعها في فمه ثم يشرب الشاي الخالي من السكر عليها، ويتركها تذوب في فمه وهو يشرب إلى أن ينتهي الفنجان وكثيراً مايتحدث إلى رفقائه وقطعة السكر في فمه لايستنكر ذلك منهم مستنكر.

أما القهوة فإنهم يقدمونها هنا ولكن بمقادير أقل من المقادير التي يقدمون بها الشاي وغالبًا مايأتون بها بعد الطلب.

وقد أحضروا هنا شيئًا غريبًا أسموه شاي البلوط وقالوا إنه يصنع من ثمار شجر البلوط الذي يبدو كأنه الفول ولم أستسغه وربما كان السبب في ذلك هو أن الشاي تنتجه البلاد السوفييتية وخاصة في جمهورية جورجيا المجاورة لجمهورية أذربيجان هذه بخلاف القهوة التي تستورد من الخارج وكانوا قد أعدوا المائدة على شكل الهلال المعقوف الطويل.

ولذلك استوعبت عدداً لابأس به من أعضاء الوفد والمرافقين وبعض وجهاء المسلمين من الشيعة وأهل السنة في البلاد.

وقد بدأ القوم تناول مقدمات المائدة حتى أمعنوا فيها أكلاً واضطر أحد المواطنين إلى أن ينبههم إلى أن الأصناف الرئيسية من الطعام قادمة ومنها الشواء الجيد الذي ذبحوا خرافه قبل لحظات وذلك لكوننا جئنا للمكان قبل الموعد الذي كان قد قرره معدو المائدة.

وكان الأكل من البقول والمقدمات كثيراً وألححنا على أكل البقل المسمى بالوزيري قالوا: إنه يسمى كذلك لكونه كان يأكله الوزراء ويزرعه الناس في الأماكن الباردة مثل أذربيجان هذه في بيوت زجاجية أو لدائنية مدفاة مثل غيره من البقول الخضر التي تكون غالية جداً أثناء الشتاء، ورخيصة جداً أثناء الصيف عندما تزرع في الأرض المعتادة ولاتحتاج إلى حماية.

وكان الأنس بالقوم والمعلومات المفيدة المهمة عن أوضاع البلاد التي شملت كل الموضوعات ماعدا السياسية وكنا بحاجة ماسة إليها وكان بعضها نسمعه لأول مرة قد أمتعتنا مثلما أمتعنا الأكل أو أكثر من ذلك.

وكانت اللغة السائدة هنا أكثر من غيرها هي العربية لأن القوم وأكثرهم من العاملين في الإدارة الدينية أو من أئمة المساجد وبعضهم تخرج من معهد الإمام البخاري في مدينة طشقند يحسنون العربية ولايجدون صعوبة في فهمها وفي إفهام الناس مايريدونه بها.

ثم جاءت الأطباق الرئيسية شواء منوعاً لذيذاً وبعضها كان حنيذاً من أطايب الذبائح، ومعها الأطباق الشهية من المرق والخضروات المطبوخة.

وفي نهاية هذه المائدة التي صارت مائدة للعقل والبطن وأمتعت الاثنين كليهما قدم الشيخ (الله شكر) هدية إلى ضيوفه فأهدى إليَّ خنجراً جيد الصناعة مصنوعاً في هذه البلاد وسجادة ثمينة من صناعة يدوية عريقة معروفة عنها، وكذلك أهدى للاخوة أعضاء الوفد هدايا قيمة وعدنا إلى فندقنا في باكو مع غروب الشمس.

يوم الإثنين ١٢ شعبان سنة ١٤٠٦هـ، ٢١ أبريل ١٩٨٦م.

كان الإفطار في هذا الصباح مبكراً من أجل البرنامج الحافل المرسوم لهذا اليوم الذي سيكون خارج مدينة (باكو) بل يبعد عنها بمئات الكيلو مترات.

فكانت المائدة الطويلة الحافلة بالأطعمة التي من غرائبها سمك مصبر من السمك الذي يبيض البطارخ أو الكافيار وهو من أغلى أنواع السمك عندهم ولايعيش إلا في بحرهم هذا (بحر قزوين).

ومنها أنواع منوعة من اللبن مابين رائب وحار ومحلى بالسكر إلى جانب العسل وأنواع من الزيتون الذي تشتهر به هذه المنطقة.

وفرغنا من الإفطار قبل الثامنة بقليل حيث غادر موكبنا الفندق إلى مطار باكو فانتظرنا بضع دقائق في قاعة كبار الزوار.

وقد أصبحنا على جو بارد في (باكو) بحيث قالوا إن درجة الحرارة في هذا الصباح هي سبع درجات مئوية ولذلك لبسنا ملابس إضافية للوقاية من البرد.

من باكو إلى زاقاتالا:

بعد لبث يسير في قاعة كبار الزوار في المطار صعدنا إلى طائرة نفاثة صغيرة كانت تقف في انتظارنا وقد أخبرني الشيخ (الله شكر باشا زاده) أن الإدارة الدينية هنا التي يرأسها قد استأجرت هذه الطائرة الحكومية لتقل وفدنا ومرافقيه إلى منطقة (زاقاتالا) التي يؤلف المسلمون من أهل السنة أكثرية سكانها وقال : إننا استأجرناها وفيها أربعون مقعداً بمائة روبل لكل شخص عن الذهاب والإياب في هذه الرحلة الخاصة.

وطبيعي أنها استؤجرت من الحكومة لأنه لاتوجد جهات أخرى تملك طائرات وهي ذات محركين نفاثين من طراز (ياك).

استقبلتنا في الطائرة مضيفة جميلة من القسم الأوربي في الاتحاد السوفيتي وربما كانت من أهل أكرانيا، ووقفت أمام الركاب الذين بلغ عددهم واحداً

وعشرين راكباً منهم الشيخ (الله شكر باشا زاده) رئيس الإدارة الدينية في المنطقة والأستاذ (صابر حسين) مدير العلاقات الخارجية في الإدارة الدينية هنا.

وقالت المضيفة في بيانات الرحلة التي كانت تلقيها باللغة الروسية من دون مكبر وذلك بعد الترحيب المعتاد في الرحلة الخاصة إن المسافة إلى (زاقاتالا) تبلغ ٤٨٠ كيلو متراً سنقطعها في ساعة واحدة وقالت: أرجو أن تتذكروا أن التدخين ممنوع منعاً باتاً خلال الرحلة، ولايجوز أن يحاول أحد الركاب فتح باب الطائرة، ثم أفاضت في سرد تعليمات الطيران المعتادة مثل ربط الحزام، وكأنها تخاطب أناساً يركبون الطائرة لأول مرة، ومن ذلك أنها ذكرت أنه يوجد في الطائرة حمام هو في مؤخرتها.

وجاء في البيانات أيضاً أن قائد الطائرة اسمه (نوروز بهلول بن سليمان) وقال الإخوة المرافقون : إنه من أبناء المسلمين.

وكانت تتكلم جملة جملة بالروسية والأخ محمد صادق محمد يوسف يترجم كلامها إلى العربية.

كان قيام الطائرة في التاسعة والربع، وقد أسرعت بالصعود حتى علت السحاب وصرنا في جو شامس منير بعد أن كنا في جو غائم بل دامس مظلم، وما أجمل النور بعد الظلام.

قبل الهبوط في زاقاتالا :

رأينا من خلال السحاب وقد أخذت الطائرة بالتدني سلسلة من الجبال السود والتي أكثر سوادها بسبب الخضرة في أساقلها وقد جللت هاماتها وأكنافها الثلوج ونحن الآن في آخر شهر أبريل.

وعندما نزلت الطائرة تحت السحاب الكثيف كنا نشاهد الأرض من ستار من الغيم المنخفض خضرة بل قاتمة الخضرة ذات زراعة خصبة فسررنا بذلك لأنها من بلاد المسلمين وإن كان الروس قد ينكرون ذلك عليهم ويزعمون أنها لقوميات مختلفة من بينها القومية الروسية بسبب وجود أقلية روسية العنصر فيها هي طارئة عليها.



الجبال الخضر في زاقاتالا

وقد تبين أن الخضرة هذه هي لحقول من القمح ولأشجار كثيرة من أشجار الفاكهة والنقل التي منها الجوز والفستق، ورأينا نهراً شحيح المياه قال الإخوة المرافقون إنه ربما كان ينتظر ذوبان الثلوج لكي تفعم مجراه بالمياه.

ورأينا حيواناً كثيراً هنا من البقر والغنم والبقر أكثر.

ومنظر الأشجار بهيج لأنها قد أورقت وحتى المنازل بعضها أكثر بهجة بألوانها الحمر ثم لمحنا نهراً ضحلاً آخر ضيق المجرى.

في مطار زاقاتالا :



صورة تذكارية لاستقبال الوفد في مطار زاقاتالا

وصلت الطائرة في العاشرة والربع بعد طيران استمر ساعة واحدة وقد أعلنت المضيفة قبيل الهبوط أن درجة الحرارة في المطار هي إحدى عشرة درجة مئوية.

وهذا شيء سار لأنه ينبئ بجو معتدل.

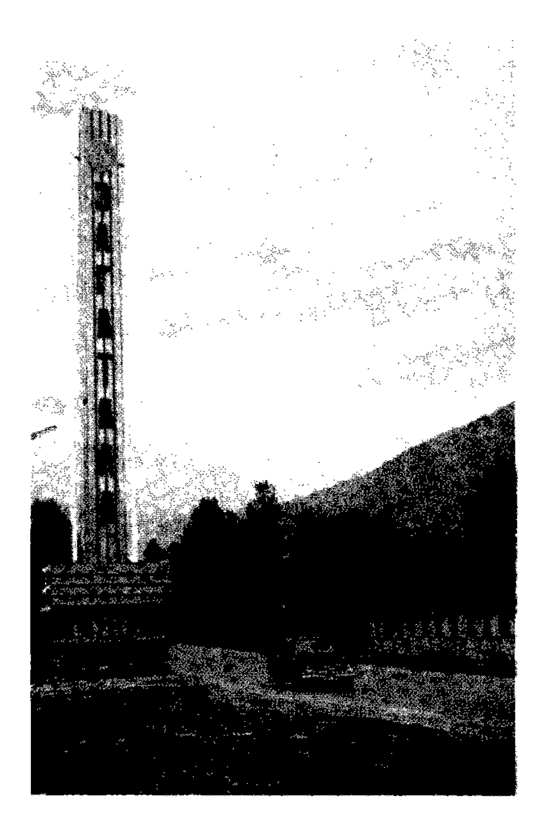
وجدنا عند سلم الطائرة جمعاً من المستقبلين على رأسهم (روفائيل بن مجيد) رئيس بلدية زاقاتالا ويسمونه هنا رئيس المدينة أو حاكم المدينة، ومعه عدد من كبار الموظفين وعدد من أئمة المساجد.

وبعد السلام قدموا رتلاً من السيارات كانت أولاها سيارة سوداء صغيرة معتادة لرئيس الوفد وليست كالسيارة الطويلة الرسمية التي كنا ركبناها في المدن السابقة لعدم وجودها هنا.

ونحن إذ ننوه بالسيارة ليس لأن ذلك له معنى كبير أو صغير عندنا ولكن لإعطاء صورة للقارئ الكريم عن الرحلة بكل تفاصيلها.

وركب معي رئيس البلدية (روفائيل بن مجيد) أو مجيدوف كما يقولون. وقد أخبرني بعض المسلمين هنا أن اسم روفائيل موجود عند المسلمين هنا وليس ذلك تقليداً للروس أو المسيحيين.

وتقدمت الموكب سيارة عسكرية تطلق النفير المميز للمواكب الرسمية وذلك في الطريق من المطار إلى البلدة.



منظر من ضواحي زاقاتالا

سرنا في طريق إسفلتي ضيق على جانبيه الأشجار العالية مما يدل على أنها قديمة الغراس وخلف أشجار الطريق أشجار التفاح والجوز وحقول غير متسعة من المزروعات وخلف ذلك كله ربى خضر بل هي كالسود لشدة الاخضرار مما

يعطي اليقين بأن هذه المنطقة خصبة جداً إلا أن الشيء المنفر أن الشعار الشيوعي الذي هو شعار البلاد وهو المنجل والمطرقة قد رسموه على عدة أماكن في مفارق الطرق ومعه كلمات بالروسية.

ومن مظاهر الخصب في البلاد وجود أعداد من الأبقار ترعى على جوانب الطريق مما ذكرني ببلاد كشمير التي تحتلها الهند حيث كنت شاهدت فيها أعداداً كبيرة من الأبقار ترعى في المنطقة التي تقع بين الطريق الأسفلتي والمزارع الخاصة فهي وإن كانت ضيقة، فإن فيها مرعى كثيراً بسبب خصوبة الأرض ووفرة الأمطار.

وهذه الأبقار هي في العادة مملوكة لعدة أشخاص بحيث يكون للواحد بقرة واحدة أو يشترك مع غيره فيها وذلك بخلاف الأبقار التي تملكها الحكومة فإنها تكون كثيرة وتكون محصورة في مكانها من المزارع الحكومية المسماة (سولخوز) وكذلك الأبقار التي تملكها الجمعيات التعاونية شبه الحكومية المسماة (كلخوز).

ورأينا على الطريق أيضاً لوحة فنية رسمت عليها أصناف الفاكهة التي تنتجها هذه المنطقة منطقة زاقاتالا وأسوار بعض المزارع والأحواش (الأفنية المكشوفة) مبنية بالطين المؤسس بالحجارة لئلا تتلفه الرطوبة.



في استقبال وفد الرابطة في زاقاتالا

وكان منظر النساء الكبيرات والمتوسطات في العمر يشعرك بأنك قد وصلت إلى منطقة إسلامية عريقة إذْ ترى على رؤوسهن المناديل التي تغطي شعورهن.

ومن الطريف أيضاً الذي يدخل في عرض اللوحات الفنية لمنتجات المدينة أنهم أقاموا تمثالاً كبيراً للأروى وهو الماعز الجبلي وذكروا أنه يعيش في جبال هذه المنطقة.

بلـــدة زاقاتالا:

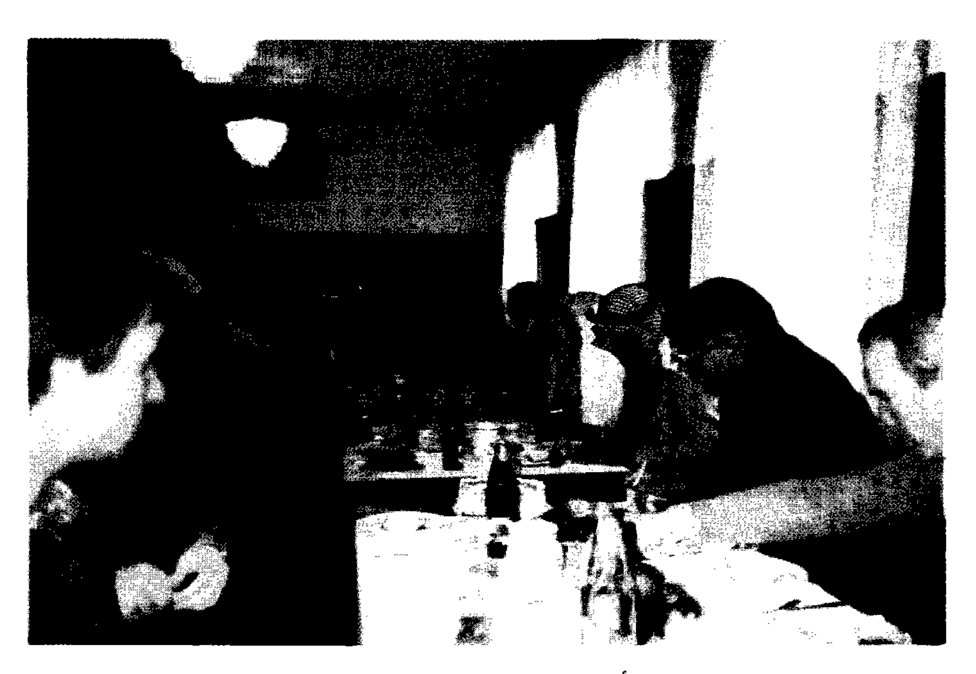
وبعضهم يفضل أن ترسم (زكاة الآ) على اعتبار أن أصل التسمية من العربية (زكاة الله) أي عطية الله ولكن الصحيح أن معني اسمها بلغتهم: ماوراء المكان الخالي من الأشجار هكذا قالوا لنا لأن المكان هي (تالا) والاسم للبلدة والمنطقة فكلتاهما اسمها (زاقاتالا) وللمحلات والقرى الأخرى داخلها أسماء خاصة بها.



حتى الأطفال والنساء شاركوا في استقبال الوفد

وقد رأينا الناس متجمهرين في شوارعها وكان الموكب لافتًا لنظرهم حتى وقف عند باب محافظة المدينة فكان الجمع كبيراً وهو أمر مقصود لنا وللإخوة المسلمين لأنه وسيلة من وسائل الإعلان عن وصول الوفد الإسلامي من مكة المكرمة.

دخلنا مبنى غير فخم ولا واسع وأجلسونا في قاعة عليها مائدة مستطيلة قد صفت عليها الأشربة المختلفة من الماء المعدني إلى شراب الفاكهة كالعنب والتفاح وضعت فوقها أنواع متنوعة من النقل أي المكسرات التي تشتهر بها هذه المنطقة.



أثناء الاجتماع في بلدية زاقاتالا

ومن غرائب ما رأيناه فيها مربى عين الجمل أو القعقع كما نسميه في بلادنا وهو نوع من الجوز ولم أكن أتصور أنه يصنع منه المربى ووجدناه لذيذاً ومربى الورد الذي تشتهر به المنطقة وقد أخبرونا أن المصنع الوحيد في الاتحاد السوفييتي كله لتقطير الورد موجود هنا وقالوا لنا إن مربى الورد بالعسل لذيذ ووجدته

كذلك. بعد أن استقر بالوفد الجلوس على هذه المائدة تكلم المحافظ ورئيس البلدية (روفائيل مجيدوف) بكلمة مسهبة عن حالة هذه المنطقة قبل الثورة الشيوعية في عام ١٩١٧م وما هي عليه الآن.

وأخذ في المقارنة ما بين ذلك الحين أي قبل حوالي سبعين سنة وما صارت عليه الحال في الوقت الحاضر فكان مما قاله:

إن مدينة زقاتالا تأسست عام ١٨٣٨م وتقدر مساحة منطقة (زاقاتالا) الآن بحوالي ٢٣٤ ألف كيلو متر مربع ويسكنها ٨٦ ألف نسمة ويقدر سكان مدينة زقاتالا وحدها ١٨ ألف نسمة. ويقطن منطقة زقاتالا الآن ٢٣ قومية تشكل القومية الأذربيجانية ٧٠٪ من سكان المنطقة ويوجد فيها الأرمن والروس والأوكرانيون.

ويقول رئيس البلدية بأن في منطقة (زاقاتالا) الآن توجد ١٣ مؤسسة صناعية و١١ مؤسسة إنشائية و٤ مؤسسات نقل و٢٣ مزرعة تعاونية (كلخوز) و٤مزارع حكومية (سولخوز) ويقوم اقتصاد المنطقة على الصناعة والزراعة ودخل المنطقة من الصناعة ٨٥ مليون روبل سنوياً ومدخولها من الزراعة ٦٠مليون روبل سنوياً ويوجد بالمنطقة ١٧ مصنعاً لصناعة الألبان والدخان والمواد الإنشائية وصناعة زيت الورد.

وذكر رئيس البلدية بأن المنطقة تنتج ١٦ نوعاً من المنتوجات الزراعية كما تقوم بتربية المواشي والدواجن ودودة القز ويقدر إنتاجها من التبغ ١١ ألف طن سنوياً و٥٣٤ طناً من الحرير و٢٢٠٠ طن من اللحم و٩١٠٠ طن من الحليب و٢,٤٠٠,٠٠٠ من البيض و١٣٥ طناً من الصوف ويوجد بالمنطقة ١٩ ألف رأس من المواشي و٨٠ألف رأس من الغنم و٧٥ ألف دجاجة بالإضافة إلى تملك الأفراد ٢٨ ألف رأس من المواشي.

ومتوسط دخل الفلاح الذي يعمل في المزارع التعاونية هو ٢٣٧ روبل شهرياً وأشار رئيس البلدية بأن في المنطقة معهدين عاليين ومدرستين مهنيتين و٦٧ مدرسة عادية و٣٠ روضة للأطفال ويبلغ عدد التلاميذ ٢٠ ألف تلميذ وفيها ٧٦ نادياً ثقافياً ورياضياً وعشرة مستشفيات تحتوي على ١٨٧٠ سريراً.

وتضم منطقة (زاقاتالا) ٦٦ قرية و ٢١ من المجالس القروية وبلدية للمدينة.

وفي السنوات الخمس الأخيرة بنيت في المنطقة ٢٥٠ ألف متر مربع من المباني السكنية ويقدر نصيب الفرد من السكن المبنى بحوالي ١٣ مترًا مربعًا كما أن العمل جار لبناء مزيد من المنازل لأهالي المنطقة وتطوير مستوى الصناعة وزيادة الإنتاج الصناعي حتي يصل وارد المنطقة من الصناعة إلى ١٢٠ مليون روبل سنويًا.

وقد أجبت رئيس البلدية على كلمته بالشكر على استقباله وترحيبه وعلى البيانات والمعلومات التي قدمها عن المنطقة وقلت: إن وفد الرابطة قد وصل إلى هذه الأراضي بناءً على دعوة من الإدارات الدينية لمسلمى الاتحاد السوفييتي للاطلاع على أحوال المسلمين ودراسة كيفية التعاون بين الرابطة والإدارات الدينية في سبيل تنشيط الثقافة الإسلامية لمسلمي الاتحاد السوفييتي ولتوثيق الصلات الدينية والثقافية معهم، لأن من عمل الرابطة الاتصال بالمسلمين في كل مكان في العالم وتوثيق العلاقة الأخوية معهم والتعاون معهم على العمل الإسلامي ورابطة العالم الإسلامي هي منظمة شعبية عالمية وليست إدارة حكومية ولكن حكومة المملكة العربية السعودية تقدم لها المساعدات المالية لإنجاز أعمالها كما تفعل مع غيرها من المؤسسات والهيئات الإسلامية والاجتماعية.

وتقدم رابطة العالم الإسلامي المساعدات المالية لبناء المساجد وإرسال المدرسين وأئمة المساجد والدعاة والكتب الإسلامية والمنح الدراسية وتسهم ماديًا ومعنويًا في النشاط الإسلامي لكل جماعة إسلامية، وهي في أعمالها ونشاطاتها لاتعمل في السياسة ولاتتدخل في الشئون السياسية أو الأمور الداخلية لأي دولة ولا في الأمور الداخلية الخاصة بالجماعات المسلمة وقد زار الوفد جمهورتي أوزبكستان وأذربيجان لأن بلادنا لها علاقات ثقافية قديمة تتصل بتاريخ وثقافة هذه البلاد منذ أكثر من ألف عام وقد شاهدنا المخطوطات الإسلامية التي كتبت في هذه البلاد باللغة العربية أو الأبجدية العربية في مكتبة المخطوطات الشرقية في باكو مما يدل على تأصل الثقافة الإسلامية في هذه البلاد.



رئيس بلدية زاقاتالا على يمينه المؤلف

وقد سألته بعد ذلك عن عدد المسلمين في المنطقة؟ فقال الحاكم أو رئيس البلدية: إنه يصعب علينا معرفة المسلمين هنا لأن الإحصاءات التي تحصل للسكان لا تجري على أساس الدين ولايسجل دين الفرد في شهادة الميلاد وإنما نقدر المتدينين هنا بحوالي ١٠٪.

هكذا قال مع أن المعروف المشتهر للناس كلهم أن الأكثرية من السكان هم من المسلمين ولكن السياسة الشيوعية التي ينفذها هذا وأمثاله من الموظفين وإن لم يؤمنوا بها لاتعترف كما قال -بالإحصاء الديني - على أن الرجل فيما ظهر لي من حاله ليس شيوعياً ملحداً وإن كان منصبه لايعطى إلا لمن يكون ظاهره كذلك، وهو لم ينف عن نفسه الشيوعية أو يثبت لنفسه التدين لأننا لم نتطرق إلى ذكر ذلك في حديثنا وإنما ظهر لي منه الارتياح لأخبار الإسلام والمسلمين والله أعلم بحقيقة حاله.

وهو من أبناء المسلمين من دون شك أما ماذكره من إحصاء عن المنطقة فإننا لانملك إلا أن نقول له نعم لأنه لاسبيل للتحقق من صحة ماذكره مع عدم اقتناعي بصحة ذلك لعدم وسيلة التحقق منه.

المزرعة الجماعية أو الكلخوز :

كانت الفقرة التالية كما وضعوا البرنامج قبل استشارتنا هي زيارة مزرعة جماعية كالتعاونية من تلك المسماة (الكلخوز) وهذه فرصة لرؤية هذه المزارع ومقارنتها بالمزارع في البلدان غير الشيوعية وبخاصة في مزارع الأبقار في بلادنا وإن أختلفت الظروف والأحوال المحيطة، بالمزارع في كلا البلدين.

وتسمى هذه المزرعة (كلخوز صمد ورغون) وانتقل الموكب الذي صحبه رئيس البلدية (روفائيل مجيدوف) وعدد من المرافقين من أهل زاقاتالا بالإضافة إلى المرافقين الذين كانوا معنا من باكو وسمرقند فكان في الاستقبال عند باب المزرعة (نذير حسين) رئيس المزرعة ومحمد بولاو نغام مساعده فيها.



في المزرعة التعاونية في زاقاتالا

وكان أول ماصنعوه لنا أن ألبسونا ثياباً بيضاً فوق ملابسنا شبهتها بالأكفان التي ألبسوها المسلمين بعد أن قضوا عليهم قضاء معنوياً وقصدهم من ذلك وقاية الثياب مما قد يصيبها من دنس أثناء الجولة.

ثم دخلنا المزرعة التي لم أر فيها أي شيء يستحق أن ندعى لرؤيته بل إن العكس في نظري هو الصحيح فهي ليست مزدهرة ولا بهيجة المنظر وكأنما يظنون أننا في بلادنا نعجب بمثل هذه المزرعة المتأخرة بالنسبة إلى مزارع الأبقار في بلادنا ولا أشك في أنهم لو رأوا مزرعة من تلك الموجودة عندنا في القصيم أو في الخرج لأخفوا مزرعتهم هذه بل ربما لم يطلعوا عليها من يكونون مثلنا.

قصدوا أن نرى بالدرجة الأولى الأبقار وهي أبقار من فصيلة محلية غير معروفة عندنا فهي في مثل حجم الأبقار المعتادة أي أصغر كثيراً من الأبقار الهولندية والنيوزيلندية الشهيرة.



الأيقار في المزرعة التعاونية

وقد رأيناهم صفوها صفين في حظيرة طويلة واسعة مدفئة ووسط هذه الحظيرة المعالف، وأخبرونا أن عدد الأشخاص الذين يعتنون بهذه الأبقار سبعة وستون شخصاً ولم يذكروا عدد الأبقار ولكنني أعتقد أنها في حدود الخمسمائة. وانتقلنا بعد ذلك إلى قسم الدواجن من الطيور وإنتاج البيض وهو متخلف جداً بالنسبة إلى الموجود عندنا وبخاصة في مدى استعماله الآلات الحديثة ونظافة المحاضن ونوع الدواجن.

تحدث (نذير حسين) عن هذه المزرعة التعاونية (الكلخوز) فقال: إنها تضم أربعمائه وثماني عائلات عدد أفرادها (١٢٥٠) شخصاً يعملون في تربية المواشي والدواجن والزراعة ويقدر مدخول المزرعة سنوياً بحوالي سبعة ملايين روبل.

ثم قال: وتنتج المزرعة سنوياً سبعمائة طن من اللحم و١٢٤٠ طناً من الحليب ومنتوجاته و٢٣٠ ألف بيضة، وتبلغ مساحة المزرعة ٣٤٠ هكتاراً منها ألفا هكتار أرض زراعية أي أنها مخصصة للزرع وليست مكاناً لتربية الماشية مثلاً.

مسجد كالاكند:

غادر الموكب المزرعة متوجهاً إلى مسجد كالاكند، وقد يُسمّى مسجد زاقاتالا، حيث كان جماعة من المسلمين ينتظرون قدوم الوفد إليهم وقد تجمع حولهم بعض الأهالي ممن علموا بقدوم الوفد وإن لم يدعوا إلى ذلك وهذا المسجد لأهل السنة لأن الأكثرية من سكانها المسلمين هم من أهل السنة وإن كان فيها عدد قليل من الشيعة قالوا إن نسبتهم في حدود ٣٪ أو ثلث العشر.



في انتظار موكب وفد الرابطة في زاقاتالا



مسجد زاقاتالا (كالاكند)

وينبغي أن ننوه هنا بأن هذه المنطقة كانت منطقة إسلامية مشهورة بذلك منذ القديم ولايزال المسلمون وأبناؤهم يؤلفون الأغلبية من سكانها رغم وجود أناس طارئين من غيرهم جاءوا للعمل من الروس والأوكرانيين والأرمن.

والقوم هنا وفي جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي يسمون الجنس الروسي بالروس وهم العنصر الوحيد من سكان الاتحاد السوفييتي الذين يوجدون بنسبة ظاهرة في كل أنحاء البلاد على سعتها.

كان أول ما استرعى انتباهنا حديقة واسعة للمسجد يمر من يريد دخول المسجد بعد باب لها خارجي واسع محكم على ممر طويل في الحديقة على جانبيه الزهور والأعشاب التي بعضها مزروع وبعضها من أعشاب الزينة.



صورة تذكارية في حديقة

مسجد زاقاتالا (كالاكند)

وقد صحبنا جمع كبير من أهل القرية وبعضهم تخلفوا عند الباب الخارجي للمسجد وكأن الأمر لا يعنيهم منه إلا التفرج برؤية هذا الوفد الغريب الذي يرتدي أفراده ثيابًا عربية أغرب.

شعار أهل السنة :

لفت نظرنا حول محراب هذا المسجد كتابة عربية جميلة تتوجها الشهادتان، لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ثم أبوبكر، عمر، عثمان، علي.

وهذا أمر له معنى في جمهورية أذربيجان هذه التي يؤلف الشيعة – على وجه الإجمال – الأكثرية العددية من المسلمين فيها ولا يكتبون أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة على مساجدهم لأن الشيعة منحرفون عن الخلفاء الثلاثة، بل غلاتهم يسبونهم ويشتمونهم، وذلك من قصور الفقه والعقل عندهم فالفقه ظاهر والعقل كيف يحكم بأن هؤلاء الصحابة الذين هم أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هم مخالفون لأمر رسول الله وهم قد عصوا الله – على حد زعمهم – في الوقت الذي كانوا فيه هم المبلغين لدين الله، الذين حملوا الإسلام إلى أهل الدنيا ليس في جزيرة العرب وحدها بل خارجها حتى وصلت فتوحاتهم إلى الأقطار البعيدة كبلاد فارس والروم.

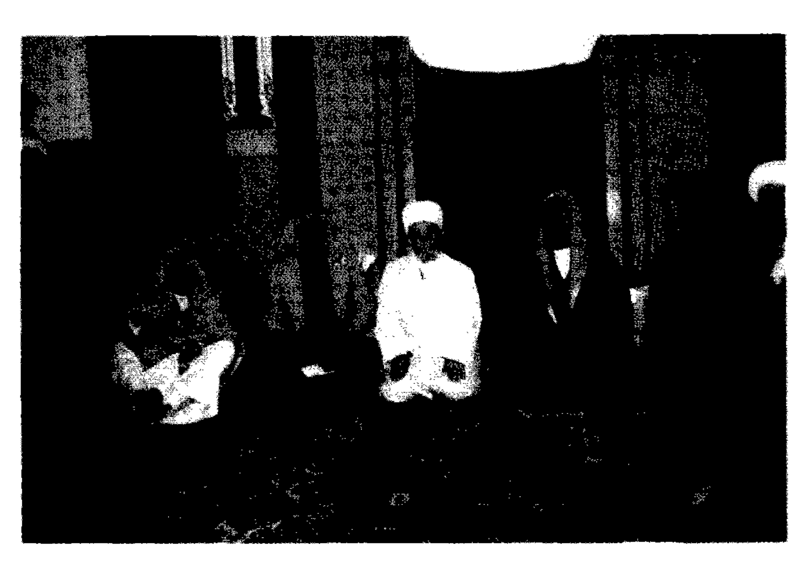
فلو سلمنا بما يقولونه فيهم لقلنا إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يصلنا الدين محرفا، وأن يكون صحابة رسوله من العاصين له والمخالفين لأمره، وهذا مما يشككنا في الإسلام ككل إذا قلنا به، والعياذ بالله.

أما محبة أهل البيت التي يرددها الشيعة فإننا نحب أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلما يحبونهم أو أكثر من ذلك، ولكن هذا لا يحملنا على أن نغلو فيهم أو أن نرفع منزلتهم إلى درجة فوق درجة البشر، أو حتى إلى مرتبة العصمة التي لاتكون إلا للرسل فيما أمروا بتبليغه، وهل ذلك إلا مثل التقديس الذي يقول به النصارى لبعض رجال الدين منهم.

والإسلام دين النقاء والصفاء الدين الذي لايجعل بين الإنسان وخالقه واسطة لغفران الذنوب أو طلب الحصول على المطلوب، والله المستعان.

واستقبلنا في مسجد (كا لاكند) حافظ بن بينو عبد الرحمن وهو حافظ لكتاب الله، ومؤذن المسجد حاج بن ملانور والقارئ محمد بن بابا وعدد من زعماء المسلمين من أهل القرية منهم متولى المسجد كما يسمونه هنا وهو رئيس الجمعية التي تشرف على المسجد وتتولى جمع التبرعات وإنفاقها على مصالحه لأن المساجد تصان وترمم من تبرعات المسلمين.

قال الأخ متولى المسجد شعبان اسكندروف مرحباً إنني باسم أهل القرية المسلمين أرحب بكم في قريتنا وأتمنى لو قدمتم إلينا في وقت نضج الفاكهة لأن بلادنا مشهورة بفواكهها الجيدة، ثم أهدى ساعة يدوية لكل عضو من أعضاء الوفد باسم جماعة أهل المسجد وقلت له إذا كانت فواكه البساتين قد فاتتنا فإن محبتكم وترحيبكم قد كان فوق ذلك وهو الفاكهة التي لاتشترى بالمال وإنما تنبع من القلوب. وتقدم أحد المسلمين بحلوى كان أحضرها من بيته وقدمها وطلب أن نأكل منها وهو يقول بتأثر: إنني لم أستطع أن أقدم غيرها فأرجو أن تجبروا خاطري بتناول شيء منها.



في محراب زاقاتالا

ثم كان حديث معهم عن تاريخ هذا المسجد الكبير الذي ينطق كل مافيه بالعناية والتنظيم فذكروا أنه بني في عام ١٣١٩هـ أي قبل استيلاء الشيوعيين على الحكم في روسيا ثم جدد بناؤه في عام ١٩٥٥م وقالوا: هكذا هو مكتوب على المسجد.



مع زعماء المسلمين في مسجد زاقاتالا

وسألتهم عن عدد المصلين فذكروا أن الذين يحضرون لصلاة الجمعة في حدود خمسة آلاف هكذا ذكروا وأصروا عليه عندما مااستفسرت منهم عن دقة هذا الرقم.

قالوا: وفي الصلوات الخمس اليومية يبلغ عدد المصلين في المتوسط حدود خمسين شخصاً فقط.



الدعاء في مسجد زاقاتالا

وذكروا أن هذا المسجد الكبير هو وحيد في هذه القرية الكبيرة وأن كل قرية يكون فيها مسجد واحد.



صورة تذكارية خارج مسجد زاقاتالا

علـــى متــن البـــرق :

البرق اسمـه في لغتهم (شمشك) وقـالوا لنا : إن الغداء فوق البرق فطلبنا تفسير ذلك فقـالوا: إنها هضـبة اسمـها (شمـشك) فوقـها مطعم ومنتزه وإن غـداءنا سيكون هناك .

عند الوصـول إلى هذه الهـضـبـة لفت نظرنا تمـثال لنـوع من الأيل وهو الوعل الكبير ذكروا أنه موجود في الهضبة معينة من هذه المنطقة وذكروا أنه كاد ينقرض لولا التـدابيـر المشددة التـي اتخذت لحـمـايته وأنـه الآن موجـود بكثـرة في سـيـريا ويربى في المزارع هناك ، كـما استـرعـى انتباهنا عـنايتهم بهذه الهـضبة بـحيث بنو أحـد جوانبـها أو لنقل حوائطـها بحـجارة صـغيرة مـضـفورة بحـيث تبـدو وكأنـها الحصـير المنشور على الحـائط ، وتشرفـ هذه الهضـبة على سهل أخـضـر هو الذي

تقع فيه عاصمة منطقة زاقاتالا وما حولها وتطل عليه من إحدى الجهات هضاب جبلية خضر هي جزء من جبال متصلة بجبال القفقاس الشهيرة التي كان أسلافنا العرب القدماء يسمونها جبال (قفج) أو (قبق).



تمثال الأيل في مطعم شمشك في زاقاتالا

وتربض فوق إحدي هذه الهضاب قلعة قديمة حصينة.

وجدنا القوم قد وضعوا الأشربة ومقدمات الطعام على مائدة مستطيلة وذلك لتناول الغداء على ضيافة أمين بلدية زاقاتالا (روفائيل مجيدوف) الذي كان كثير الترحيب والحفاوة بنا مما جعلني أسأل الأخوة المرافقين عما إذا كان هذا الرجل شيوعياً حقًا؟ فأجابوا إنه لايعين في هذه المناصب إلا من يتظاهر بذلك وأما بواطن الأمور فإن الله أعلم بها.



مطعم شمشك في زاقاتالا

وجدناهم أعدوا من الخضرات بقلاً يشبه الجرجير في كيفية الورق ولونها ولكن طعمه طعم ورق الرشاد الذي سمى حبه حب الرشاد، ويسمونه هنا الوزيري على صيغة النسبة إلى الوزير ومعه بقل آخر هو الذي يسمى عندنا في وسط المملكة (الحلوة) ويسمى في مصر الشبث وحبه هو الكراويا المشهورة.

أما الشراب فإنه زجاجات من مياه معدنية غازية ومن الكوكاكولا وعصير العنب لأن هذه المنطقة مشهورة بكثرة إنتاج العنب.

كانت المائدة تنطق بالوفرة من كثرة صحون الأكل فيها والمطعم نظيف وموقعه جميل، إلا أن أحدنا احتاج في هذا الجو الرطب الذي أكثرنا فيه من شرب السوائل إلى دخول الحمام فأخذه أحد الموظفين في المطعم إلى مكان بعيد عن المطعم، بل منعزل، لايصح وصفه إلا بأنه أي المكان أقذر من القذر ولايصدق المرء إذا دخله

أنه موجود في بلد متمدن فهو على هيئة غرفة صغيرة من الخشب المهمل غير المطلي ذات باب له قطعة من الخشب تعترض بمثابة المزلاج ومع ذلك هي خربة بحيث يشفق من يكون فيه أن يدخل عليه غيره وليس فيه ماء ولا ورق ورائحته خبيثة.

وقد حضر مأدبة الغداء معنا عدد من الموظفين والمسئولين في المنطقة إضافة إلينا نحن الذين قدمنا من باكو وعددنا أكثر قليلاً من العشرين.

إلى بلدة بالاكان :

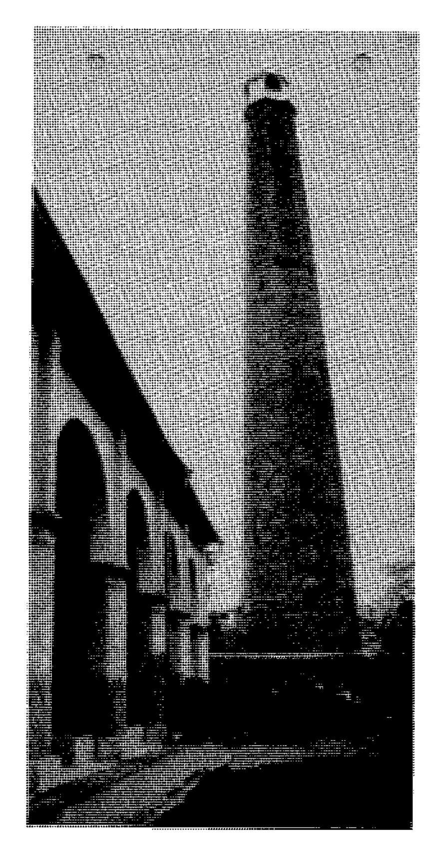
بعد الغداء سار الموكب إلى بلدة (بالاكان) وتبعد حوالي سبعة كيلو مترات عن عاصمة زاقاتالا فسلك الموكب طريقًا زراعيًا ضيقًا ذا زفلتة رديئة يخترق منطقة زراعية أكثر الأشجار فيها ظهورًا أشجار الفاكهة.

واستقبلنا في الطريق حاكم بلدة (بالاكان) أو رئيس بلدتها واسمه (صابر شير علي) وهو من أبناء المسلمين غير أنه يظهر أنه غير قريب من الدين لذلك عند ما قلت نرجو أن نراك في مكة المكرمة ظهرت على وجهه علامات من علامات عدم الارتياح إن لم يكن السخرية وكان في الاستقبال أيضًا في الطريق إمام جامع البلدة (نوروز صادق).

ركب معنا (صابر) المذكور لأننا صرنا في الأراضي التي تتبع سلطته وتخرج عن سلطة الرجل الودود (روفائيل مجيدوف).

وسار الموكب على الطريق الريفية الخصبة مع أشجار الفاكهة والنقل التي من أكثرها ظهوراً أشجار البندق ويرى المرء أعدادًا قليلة من البقر ذكروا لنا أنها مملوكة لأشخاص وهي ترعى في هذا الجو الربيعي المعشب، بل المخصب وذكروا أن الأبقار التابعة للمزارع الحكومية (سولخوز) أو للمزارع التعاونية (كولخوز) تكون كثيرة العدد في العادة.

المسجد ذو المنارة أو جامع بالاكان :



منارة مسجد بالاكان

قصد الموكب مسجد بلدة (بالاكان) ويسمى المسجد ذا المنارة كما كتبوا اسمه على لوحة عند مدخله والسبب في تسميته بذي منارة مع كون المساجد كلها أو أكثرها ذات منارات هو كونه ذا منارة متميزة في البناء والشكل فهى مرتفعة يصل ارتفاعها إلى أربعين متراً مع كونها مبنية من الفخار -أي الآجر - ولم يدخل في بنائها الإسمنت أو الحجارة وتبدو شاهقة في المنطقة وقد بنوها منفصلة عن بقية المسجد كما كان بنو قومنا يبنون المنارات منفصلة عن بناء المسجد الذي كان يبنى في تلك الأزمان من الطين.



عند بلدية زاقاتالا

وجدنا عند باب المسجد في الاستقبال حشداً من الإخوة المسلمين وقدم إمام المسجد الأخ (نوروز صادق) بعض الاخوة المسلمين ومنهم من يعملون في جمعية المسجد.

ثم تقدمنا مع الاخوة المسلمين الذين أحاطوا بنا إلى داخل المسجد، وكان وقت صلاة الظهر قدحان فصلى بنا الإمام صلاة الظهر مع الاخوة المسلمين، وبعدها صليت العصر جمعاً بالمسافرين.



البوابة الخارجية للمسجد

وكان يلازمنا الأخ الإمام (نوروز صادق) وهو مسلم سني متدين يرتدي عباءة عربية فوق ثيابه أحضرها من مكة عندما حج في العام الماضي.

وكان التأثر باديًا على وجوه الجميع فرحًا وابتهاجًا بمقدم إخوتهم في الإسلام الذين جاءوا إليهم من بلاد الحرمين الشريفين.

التعريف بالوفد :

ألقيت فيهم بعد الصلاة كلمة من مكبر الصوت الذي كان موجودًا بجانب المنبر في المسجد عرفتهم فيها بوفدنا والغرض من مجيئه إلى هذه البلاد.

وقلت : إن وفد الرابطة يزور الاتحاد السوفييتي تلبية لدعوة الإدارات الدينية للمسلمين وإن الوفد يحمل إليهم تحيات المسلمين في الأراضي المقدسة من مكة المكرمة والمدينة المنورة ومن المسلمين في أنحاء العالم الذين يشترك ممثلوهم في

مجالس الرابطة وكذلك للاطمئنان على أحوال المسلمين في الاتحاد السوفييتي ودراسة كيفية مساعدتهم بدون تدخل في السياسة أو الشئون الداخلية للمنطقة وترجو الرابطة أن توثق صلاتها وعلاقاتها بالمسلمين وتتعاون معهم في النواحي الثقافية والحضارة الإسلامية.



داخل مسجد بالاكان

كما شكرت في كلمتي الحاج الله شكر باشا زاده رئيس الإدارة الدينية لما وراء القفقاس على ترتيب هذه الزيارة وإتاحة الفرصة لأعضاء وفد الرابطة لزيارة هذه القرية المسلمة ومسجدها.

ثم حدثتهم بأن عمارة المسجد تتم بوجهين بناء المسجد وفرشه بالأثاث اللازم وتهيئته للصلاة والوجه الآخر لعمارة المسجد هو عمارته بالعبادة والصلاة فيه ومن واجبات المسلم المحافظة على أداء فرائض الصلاة وكذلك تربية الأبناء على الصلاة والتمسك بالإسلام ثم دعوت لهم بأن يعينهم الله عز وجل في المحافظة

على دينهم وتربية أبنائهم على الإسلام وأن يمكنهم الله عز وجل من زيارة الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج والعمرة وأن يتيح الفرصة لوفد الرابطة لزيارتهم مرة ثانية.

ثم ودع وفد الرابطة المسلمين بمصافحتهم فردًا فردًا وقدم لإمام المسجد مصحفين هدية له وللمسجد.

ولكن بعض أعضاء الوفد لاحظ بأن رئيس بلدية القرية يطلب من الإمام أن يسلم أحد المصحفين لإدارة البلدية والاحتفاظ بواحد في مكتبة المسجد وعندما سألنا إمام المسجد عن عدد المصلين في صلاة الجمعة في المسجد قال الإمام بأن عددهم لايتجاوز ٤٠٠ شخص وصححه الشيخ الله شكر باشا زاده وقال أربعة آلاف شخص وعن عدد المساجد في المنطقة أجاب الإمام بأنه لايعرف عددها.

وقد تولى الترجمة الأخ (صابر حسن بن حسين) مدير العلاقات الخارجية بالإدارة الدينية لما وراء القفقاس الذي لازمنا طيلة جولاتنا في أذربيجان.

وبعد الكلمة بحثنا معهم في أمور المسلمين وكان السؤال الأول عن هذا المسجد متى بني فذكروا أن من الكتابات عليه أنه بني في عام ١٨٩٠م وأنه جدد بناؤه في عام ١٩٥٥م، وذكروا أن عدد المصلين في صلاة الفجر يبلغ ألفًا وعدد المصلين للجمعة يبلغ أربعة آلاف.

وقد لاحظت أن موظفي الحكومة في غير الإدارة الدينية الذين كانوا معنا ومنهم رئيس البلدية لم يدخلوا المسجد الداخلي الذي صلينا فيه وإنما انتظروا في الخارج وفهمنا أنهم لايفعلون ذلك ولو كان في قلب أحد منهم إيمان ويود أن يصلي مع المسلمين لأنه إذا فعل ذلك فقد وظيفته وربما يعاقب بعقوبات لأنه يكون بذلك قد خالف مبادئ الحزب القائمة على الإلحاد وفعل مايتناقض مع الدستور في الوقت الذي يطلب فيه أن يسعى إلى تطبيق هذا الدستور وحمايته من الغير، وكان معظم الذين صلوا معنا من كبار السن وفيهم من هم في متوسط العمر.

أما الشبـان والأطفال والنساء فكـانوا أكثر عند الباب الخـارجي للمسجد ويـنبغي أن أنوه بأن المسجد له فناء مكشوف واسع فيه أشجار باسقة.

واحتاج أحدنا إلـى الوضوء فدخل في أماكن الـوضوء في المسجد فوجدهـا نظيفة مرتبة فيها أباريق الوضوء.



صورة تذكارية مع المسلمين في بالاكان

وقد أهـديت لإمـام المسجد ورئيس الجمعية فيه هـدايا من المصاحف الكريمة المطبوعة في المدينة المنورة كما أهديت للمسجد تسجيلاً للمصحف الشريف وجهازاً للتسجيل.

وعنـدما أردنا ركـوب السيارات بعد الصلاة كـانت أعداد كـبيرة إضافية من جمهور النـاس قد حضرت واحتشدت على جانـبي الشـارع من الجنسين ومن الأطفال فكانت فرصة لاستجلاء وجوه أهل هذه المنطقة من المسلمين الذين كلهم من أهل السنة ما عدا نسبة قليلة لاتعدى ثلث العشر أو ٣٪ كما يقولون.



يراقبون موكب وفد الرابطة

وظاهر من وجوههم صفاء اللون، بل الجمال المتميز نظراً لطيب الطقس في بلادهم ووفرة الفواكه المتنوعة فيها.

وداع بالاكــــــان :

ودعنا (بالاكان) وأهلها المسلمين الكرام سواء منهم من احتشدوا عند السيارات فكان وداعهم بالإشارات أو من صافحونا وطلبوا الدعوات.

وسلك الموكب الطريق الزراعية الخصبة نفسها.

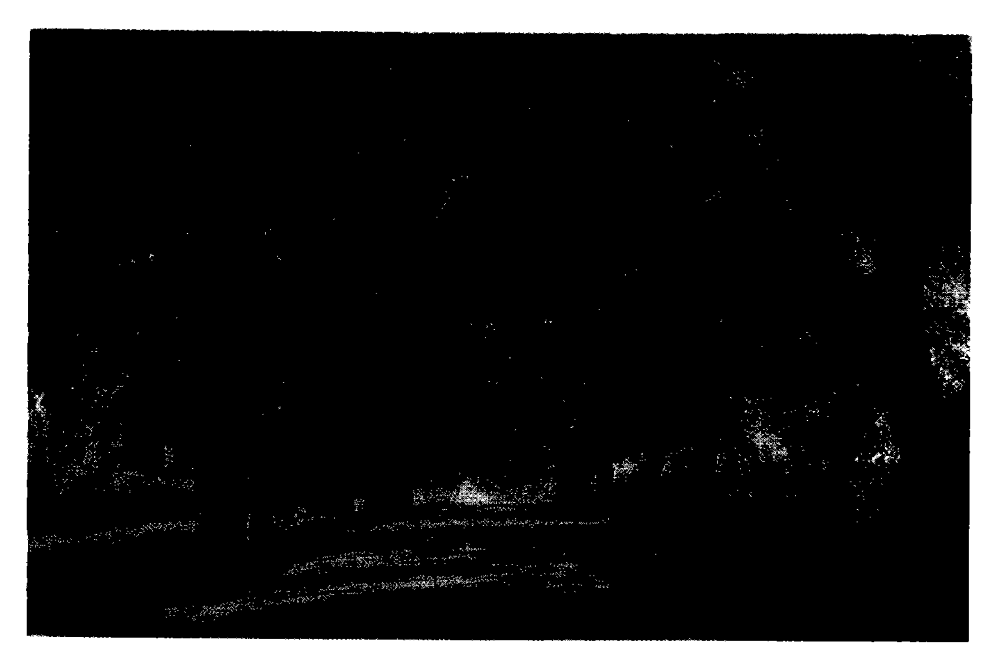
وكانت وقفة عند حدود منطقة بالاكان ودعنا فيها رئيس البلدية (صابر شير علي) وأهديت إليه مصحفاً كريماً فرأيته قبله كما يتقبل المرء قطعة تهدى إليه من القماش و(حاشا للمصحف أن يكون كذلك).



في بالاكان الأخ نور وز صادق الأول من اليمين والحافظ الثاني من اليسار

وكانت كلمته الوداعية للوفد أو أمنيته ولا أقول دعوته لأنه هو وأمثاله ليسوا من أهل الدعاء وذلك بأن قال عند الوداع: (طريقكم أبيض) وهذا كناية عن تمني التيسير والتسهيل في السفر أما أخونا إمام المسجد وبعض المرافقين من أهل القرية فكان وداعهم حاراً وكانت أحسن دعوة سمعوها في مثل هذه المناسبة هي دعوتنا لهم بأن يكون الاجتماع التالي معهم في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

إلي حديقة زاقاتالا :



حديقة زاقاتالا

عدنا إلـى ضيافة الـرجل الودود (روفائـيل مجيـدوف) التي تعـني روفائـيل بن مجيد فسار الموكب إلى حديقة عامة في (زاقاتالا) ذكروا أنها للثقافة والتسلية بمعنى أنها يستفاد منها أيضًا في دراسة الأشجار والنبات.

قال روفائيل : سندخل قاعة في مقهى الحديقة نتناول فيها الشاي والحلوى.

ولقد وقـف أحدهم فألـقى قصيـدة في مدح الخلـيفة علي بـن أبي طالب كـرم الله وجهه ولكنـها مكسرة وزادها القارئ بإلقـائه تكسيراً وهي باللغـة الأذارية التي هي فرع من التركية - كما قلنا - وهذا ما لانعرفه ولكنه كان يترجم معناها لنا هو نفسه بما هو أشبه بالإعجام لأنه لايستطيع الإفهـام بالكلام فكان يحرك يديه ويمط شفتيه ويرفع حاجبيه.

ومع ذلك قلنا : إن هذا أمر جيد أن يلقي أحد المسلمين قصيدة في مدح الخليفة علي بن أبي طالب في حضرة حاكم المدينة الذي لايعرف التدين.

وأهدى حاكم المنطقة (روفائيل مجيدوف) هدايا خصنى منها بشيء كانت فيه تحفة من المصنوعات اليدوية في هذه البلدة وكان فيه ما في هدية بعض الرفاق وهو قوارير صغيرة كالمكاحل فيها دهن من دهن الورد الذي ذكر هو وغيره أن المصنع الوحيد في الاتحاد السوفييتي لتقطير الورد هو في هذه المنطقة (زاقاتالا).

ثم كانت التمشية هذه في الحديقة التي أسموها حديقة الثقافة والتسلية ولعل هذا وصف لها وليس اسماً تختص به.

أهم ما يميزها الأشجار العالية مما يدل على انها اتخذت حديقة منذ فترة طويلة أو أنها كانت في منطقة من مناطق الغابات فبقيت الأشجار السامقة فيها وفيها أشجار معروفة كأشجار الصنوبر وأشجار أخرى غير معروفة لنا.



الطلاب في حديقة زاقاتالا

ورأينا طلاب مدرسة معهم معلماتهم وهم يتريضون أو لنقل يتفرجون ويدرسون إذ تخبرهم المدرسات بأحوال ماتقع عليه أعينهم فيها.

وأرضها مغطاة بالحشائش والأعشاب النضرة وفيها أزهار برية بريئة ذكروا لنا أن الحديقة لاتسقى الآن وذلك من فرط الخصب والندى.

ومن الطريف أنهم أقاموا في هذا الجو الشتوي مسرحاً داخل الحديقة كله في الهواء الطلق يصلح لأيام الصيف والدفء وهو غير واسع ولكن الحديقة واسعة بحيث يمكن للجمع الكبير أن يجلسوا على الأرض ويتابعوا مايجري على المسرح. ويبلغ اتساع الحديقة ستة وعشرين ألف متر مربع.

وانتهت الرغبة في المشي في هذه الحديقة قبل أن يحين موعد إقلاع الطائرة الذي كانوا قد حددوا له الساعة السادسة وكانت في الوقت بقية أحببنا أن ننفقها في السير على الإقدام في البلدة التي هي عاصمة هذه المنطقة زاقاتالا غير أننا لم نجد من مضيفينا استجابة لذلك وقال أحد المرافقين: إن ذلك ليس في البرنامج ولايمكن للقائمين على تنفيذ البرنامج أن يغيروه.

العودة إلى باكو:

قبل السادسة بقليل عدنا إلى مطار زاقاتالا الذي هو صغير ولكن مبنى المطار الذي فيه المكتب على صغره مقبول الشكل غير أن الكراهة والقذارة كانت في بيت الخلاء حيث طلب أحدنا أن يدلوه على الحمام فأرسلوا معه من قاده إلى بناء خشبي صغير أشبه بالكوخ الصغير وأشار إليه بالدخول فوجد حمام المطار مرحاضاً قذراً يشبه الموجود في منتزه (شمشك) أو البرق.

وهذا الكوخ أو الغرفة في غاية القذارة في نفسها وبابها ذو يد خشبية خشنة قذرة وليس في هذا المرحاض أي شيء من أدوات التنظيف من الورق أو الماء.

وتذكرت بهذه المناسبة أنني رأيت كثيراً من البلدان الشيوعية لا يحفل المسئولون فيها بالمرافق العامة التي تستعملها العامة من الناس رأيت هذا في الصين وإن كانت

أقل قذارة منها في الاتحاد السوفييتي وذكرت رومانيا وكان حمام مطعم جيد في الطريق مابين مدينة كونستانتا والعاصمة بوخارست فكان مثل هذا الروسي وأكثر قذارة.

ومما ينبغي التنويه به أن الحمامات ومحلات الحاجة في أماكن الضيافة الرسمية جيدة وإنما الإهمال والقذارة في هذه المحلات العامة المخصصة لعامة أبناء الشعب.

قامت الطائرة في السادسة تماماً كما كان مقرراً بعد أن ودعنا الودود الدائم الإبتسام (روفائيل مجيدوف) وبقية الاخوة هنا.

وهي الطائرة نفسها التي قدمنا عليها من باكو وكانت تنتظرنا في المطار لم تغادره كما أخبرونا والدليل على ذلك أن العاملين فيها من الطيارين والمضيفة لم يتغيروا ولاحظت هنا شيئاً لم ألاحظه من قبل وهو أن الطيارين والمضيفة يغلقون على أنفسهم الباب الذي يفصل بينهم وبين الركاب وفيه عين سحرية هي الثقب الصغير المغطى بمرآة صغيرة تكبر الحجم بحيث يرى من يكون داخل الباب من يقف أمامه من الخارج دون أن يشعر به.

ولاحظ أحد الإخوة أن المضيفة عندما تريد الدخول إلى غرفة القيادة تقرع الباب بيدها فيفتح لها أحدهم بعد فترة.

وكانت العودة إلى فندقنا في باكو مريحة لأنه مريح ونظيف. ولم يكن هناك برنامج في هذا المساء في باكو إلا دخول حمام ساخن في الفندق (سونا) ولم أكن من مريديه. ثم تناولنا العشاء السخي على المائدة الطويلة ومع الإخوة المستقبلين في باكو إلى جانب المرافقين فكان عدد الجميع يقرب من الثلاثين.

يوم الثلاثاء ١٣ شعبان ١٤٠٦هـ ٢٢ أبريل ١٩٨٦م

في مجلس السوفييت الأعلى :

والمراد به مجلس السوفييت الأعلى لهذه الجمهورية المسماة جمهورية أذربيجان السوفييتية الاتحادية والسوفييت معناه الشورى. ولكل جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفيتي سواء أكانت اتحادية أم ذات حكم ذاتي كما يقولون مجلس للسوفييت يرأسه شخص يكون هو أعلى من في الولاية رتبة وشأنا وهو فيها بمثابة رئيس الجمهورية في الجمهوريات المستقلة فهو أكبر من رئيس الوزراء.

وهذا بطبيعة الحال من ناحية الشكل وإلا فإنهم في هذه الجمهوريات يطبقون سياسة الاتحاد السوفييتي التي تأتيهم من الحزب الشيوعي ولجنته المركزية في موسكو لايزيدون على ذلك ويختارهم الشيوعيون ممن يثقون بأنهم مخلصون للمبادئ الرسمية للدولة ولحزبها الشيوعي.

وقد سبق لنا في زيارتنا هذه أن قابلنا رئيس مجلس السوفييت الأعلى لولاية ازبكستان السوفييتية الاتحادية التي عاصمتها طشقند وهو (بولاد حبيب الله) وذكرت ذلك في كتاب «في بلاد المسلمين المنسيين: بخاري وما وراء النهر» المطبوع.

وجدنا في برنامج الزيارة لهذا اليوم زيارة مجلس السوفييت الأعلى ولم يخبرونا عن الشخص الذي سيقابلنا فيه ولم نسأل عن ذلك لأننا في الأصل لم نطلب هذه الزيارة ووجدنا أن مقتضيات الضيافة أن نقوم بذلك وعندما وصلنا إلى مقر المجلس في بناء معتاد ليس فيه مما يلفت النظر شيء مع أنه مقر أعلى سلطة وأكثرها أهمية هنا كان في الاستقبال عند الباب موظف كبير تقدمنا إلى الطابق الثاني مع درج عريض فوجدنا فيه امرأة نصفًا أي في منتصف العمر أو تجاوزته قدموها لنا بأنها (رفيقة سلام) سكرتيرة المجلس ونائبة الرئيس ولم أعرف ما إذا كانت كلمة (رفيقة) تعني اسما أوصفة لها فالشيوعيون يسمون أنفسهم

بالرفاق وينادون زميلهم بالرفيق. غير أنني سألت بعد ذلك عن اسمها فقالوا، إنه رفيقة وهو الذي سماها به أبواها وأما كلمة رفيق الشيوعية بمعني عضو في الحزب فإنها تعني غير هذه الكلمة لأنها بلغتهم. ورفيقة هذا اسم عربي من الأسماء المستعملة في البلاد قبل الشيوعية وبعدها.

واستقبلنا معها رجلان مهمان في المجلس أحدهما عبدالله إبراهيم رئيس قسم القوانين والحقوق في المجلس ورستم بابا خان رئيس قسم اللجان الدائمة.

عندما أطمأن المجلس بوفدنا على مائدة مستطيلة تتصدرها هذه (الرفيقة) أخذت تتكلم عن جمهورية أذربيجان السوفييتية هذه وتقارن بين ما كانت عليه قبل الثورة الاشتراكية في عام ١٩١٧م وما أصبحت عليه الآن.



الاجتماع في مجلس السوفييت الأعلى لجمهورية أذربيجان

وكان يتولى الترجمة الأخ صابر حسن حسين مدير العلاقات الخارجية في الإدارة الدينية لما وراء القفقاس التي مقرها هنا في باكو وهو يعرف العربية جيداً.

فكان مما قالته (رفيقة بنت سلام) مايلي:

الترحيب بالوفد وأن الزيارة تعمل على توثيق التعاوف والتعاون بين الشعوب والأمم ثم قدمت معلومات مختصرة عن الجمهورية فقالت: بإن جمهورية أذربيجان تقع في شرق ماوراء القفقاس على ساحل بحر قزوين وتقدر مساحتها ٨٩ ألف كم٢ ويسكنها ٦,٦٠٠,٠١٢ نسمة وتضم الجمهورية جمهورية ناخجيفان المتمتعة بالحكم الذاتي وولاية ذاتية وفيها أيضاً ٦١ منطقة إدارية، وتشتهر الجمهورية بالنفط منذ القدم وقبل الثورة كانت الجمهورية مقتصرة على صناعة النفط ولكن بعد ثورة أكتوبر ظهرت في البلاد صناعات كثيرة منها صناعة الآلات والأجهزة الالكترونية والصناعات الخفيفة وأنواع من الصناعات الثقيلة.

وهذه الجمهورية التي ستحتفل في ٢٨ أبريل ١٩٨٦م بذكرى مرور ٦٦ عاماً على قيام الثورة الاشتراكية فيها تعتبر جمهورية مزدهرة ومتطورة عما كانت عليه في السابق ومن أهم المحصولات الزراعية في الجمهورية القطن والقمح والخضروات والفواكه.

وبما حققت أذربيجان من منجزات صناعية وزراعية تحتل مرتبة جيدة بين جمهوريات الاتحاد السوفييتي، حتى إنها نالت ثلاثة أوسمة وهي وسام لينين ووسام ثورة أكتوبر ووسام صداقة الشعوب.

وتهتم الجمهورية بالنواحي الثقافية والعلمية والحضارية لشعب أذربيجان وبعد أن كانت نسبة الأمية ٩١٪ وعدد المتعلمين ٦١ شخصاً قبل الثورة، أصبح الآن في أدربيجان أكثر من أربعة آلاف مدرسة و١٨ من المعاهد العليا و١٧٨ من المدارس المهنية وفيها أيضاً أكاديمية العلوم ومعهد البحوث العلمية وفي المعاهد العليا يدرس ١١ألف طالب كما يدرس فيها طلاب أجانب من ستين دولة أجنبية ويدرس معظم الطلاب الوافدين العلوم البترولية حيث تتخصص جامعات أذربيجان بصفة خاصة في هذا المجال.

وأذربيجان جمهورية مستقلة فيدرالية لها قانونها الخاص وحسب الدستور الجمهوري الأذربيجاني يحق لمن يبلغ ١٨ عاماً من العمر أن يشترك في انتخاب أعضاء مجلس الشعب وهو أعلى سلطة تشريعية في البلاد التي يحق لها إصدار القوانين والتشريعات ومواطنو الجمهوريات مسئولون جميعاً أمام القانون ويجرى انتخاب أعضاء المجلس مرة كل خمس سنوات ويعقد المجلس جلساته مرتين في الصيف والشتاء سنوياً، وينتخب من أعضاء المجلس رئيساً له وأربعة نواب لرئيس المجلس، كما يتم انتخاب هيئة الرئاسة من رئيس وثلاثة معاونين و١٦ عضواً وتعمل هذه الهيئة في المؤتمرات والاجتماعات، وكذلك بموجب الدستور الجمهوري يجرى تشكيل لجان دائمة من أعضائه، وكل لجنة تتكون من ٢١عضواً وتوجد ١٧ لجنة في شتى الميادين مثل لجنة الشئون الخارجية ولجنة الشباب ولجنة المعرفة ولجنة الزراعة وهكذا ولكل لجنة رئيس ونواب وموظفون ولكل منها أيضاً ميزانية خاصة، وأعضاء المجلس البالغ عددهم ٤٥٠ عضواً منهم ١٦٤ فلاحاً و٣٠ امرأة و١١٢ عضو تقل أعمارهم عن ٣٠ عاماً و٢٢٨عضواً من رجالات الدين والعلم والأدب.

وهناك المجالس المحلية ويتم انتخابهم من أهالي المنطقة وذلك لدراسة القضايا والمشاكل المحلية ولها لجان دائمة لحل المشاكل الخاصة بالمنطقة ويبلغ عدد أعضاء المجالس المحلية ٥٠ ألف عضو.

وفي مجلس السوفييت الأعلى يتم تشكيل الحكومة ومجلس الوزراء هو السلطة التنفيذية كما يشكل المجلس لجنة تفتيش الشعب واختيار المحكمة العليا للبلاد ويقدم مجلس الوزراء تقارير عن أعماله ونشاطاته إلى مجلس الشعب للدراسة والإقرار.

ثم قدمت بعض الحاضرين إلى وفد الرابطة فقالت:

السيد/ عبدالله إبراهيم هو رئيس قسم القوانين والحقوق.

السيد/ رستم بابا خان رئيس قسم اللجان الدائمة.

السيد/ عبدالله علي مندوب مجلس شئون الأديان.

الحاج الله شكر باشا زاده شيخ الإسلام ورئيس الإدارة الدينية لما وراء القفقاس وعضو مجلس السوفييت الأعلى.

وعند ذلك نهضت فألقيت كلمة الوفد بدأتها بالشكر على الحفاوة والترحيب وكذلك المعلومات القيمة التي قدمتها عن المجلس وعن أذربيجان ثم قلت إن بلاد أذربيجان مشهورة في كتبنا بعلمائها وتاريخها في الإسلام وأعمالهم في الأدب.

وفي المراجع القديمة التي سطرت قبل ١٤٠٠ عاماً توصف بلادكم بأنها بلاد الحرير وقد وجدنا أن معاملات أهلها أنعم من الحرير بحسن استقبالكم وكريم ضيافتكم. ثم تحدثت عن رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة وقلت: جئنا إلى دياركم بدعوة من رؤساء الإدارات الدينية التي قدمها إلينا بالنيابة عنهم الدكتور شمس الدين رئيس الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان وقد سررنا لهذه الدعوة ولبيناها، ذلك لأن رابطة العالم الإسلامي التي تضم في مجالسها ممثلين ومندوبين من الشعوب المسلمة في العالم، يستفسر المسلمون منها ويتساءلون عن أحوال إخوانهم المسلمين في الاتحاد السوفييتي وكنا نجيبهم بأننا سنخبركم عن أحوالهم بعد أن نتمكن من زيارتهم ومشاهدة أوضاعهم، والآن وقد يسر الله لنا زيارتكم فأصبح لدينا مايمكن اجابتهم وإشعارهم عن أحوال إخوانهم المسلمين في الاتحاد السوفييتي.

ورابطة العالم الإسلامي منظمة شعبية عالمية غير حكومية تهتم بالثقافة والدين الإسلامي ولاعلاقة لها بالشئون السياسية ولاتتدخل في الشئون الداخلية لأي دولة ولايتعرض عملها للنظم السياسية.

ثم تحدثت عن الإسلام فقلت: في البلدان الغربية عادة يفهم بأن الإسلام مسألة شخصية تقوم على العلاقة بين العبد وربه وأنه مجموعة عبادات وشعائر والواقع أن الإسلام هو عبارة عن حضارة وثقافة وسلوك يلتزم بها المسلم ويبني على أساسها علاقاته مع ربه ونفسه وأبناء مجتمعه والكائنات التي توجد في البيئة والحياة.

والإسلام في جمهورية أذربيجان أو في جمهورية أوزبكستان أو غيرها من الجمهوريات الإسلامية هو حضارة وثقافة قديمة متأصلة في هذه البلاد، فعندما زرنا المتحف والمعهد شاهدنا كثيراً من الآثار والمخطوطات الإسلامية التي كتبت بالحروف العربية وحتى أكثر تاريخ أذربيجان وآدابها مكتوب باللغة العربية والأبجدية العربية.

ومن هذا الميدان تنطلق الرابطة في العمل على توثيق العلاقات الثقافية مع الشعوب الإسلامية والرابطةعند ما توثق العلاقات الثقافية الأدبية مع المسلمين لايعني عدم التعاون مع غير المسلمين، بل تحث المسلمين على التعاون مع المواطنين غير المسلمين على تطوير بلادهم فالرابطة تساعد المسلمين على بناء المساجد وإرسال الكتب وإرسال الأئمة إلى البلدان التي تحتاجهم كما تقدم منحاً دراسية للمسلمين لدراسة العلوم الإسلامية واللغة العربية في الجامعات الإسلامية وتعقد الندوات والمؤتمرات وتدعو الشخصيات الإسلامية والعلماء البارزين للعمل على توثيق التعاون في مجالات الدعوة الدينية والثقافة الإسلامية من غير تدخل في الشئون السياسية ولاتهتم الرابطة بالمسلمين العريقين في إسلامهم مثل مسلمي الاتحاد السوفييتي فحسب وإنما من اهتماماتها أيضاً المناطق التي انتشر الإسلام فيها مؤخراً مثل جزر فيجي ونيوزيلندا، فالإسلام يدخل في بلدان جديدة وقد دخل الإسلام في مملكة تونقافي المحيط الهادئ منذ سنتين.

والتعاون على تنشيط الثقافة الإسلامية، ليس معناه ألا يأخذ المسلم بالعلوم والصناعة الحديثة بل نحن ننصح المسلمين دائماً بأن يأخذوا بالعلوم والصناعة الحديثة ومايفيد بلادهم وكذلك بالتعاون مع غير المسلمين لمنفعة بلادهم.

وقد علقت نائبة الرئيس على كلمتي بالشكر والتقدير وقالت إن الزيارة والاتصالات تؤدي إلى وحدة السلام ومن أجل الأمن والسلام في العالم يلزمنا أن نتحد ونستنكر الحروب والمعارك ونعمل على تأييد السلام وأتمنى لكم وللشعب السعودي وجميع الشعوب السلام والأمن والحياة وأتمنى لكم النجاح وأكرر أهلاً وسهلاً.

ثم تحدث عبدالله إبراهيم رئيس قسم القانون والحقوق في مجلس السوفيت الأعلى فقال: إن لغة القانون لغة صارمة وقبل أن أحدثكم عنها أود أن أعبر لكم عن مشاعري الطيبة لزيارة الوفد وكلمة رئيس الوفد وأقدم للجميع الشكر والامتنان وأقول لكم بأن حرية الوجدان هي أهم شيء للإنسان في كل الظروف، ولاشك أن فكرنا قد تأسس على المبادئ الماركسية، ونرى أن سعادة الإنسان في هذه النظرية وقد بدئ في تطبيق حرية الوجدان والدين من أوائل بدء الثورة الشيوعية.

وتتضمن المادة ٥٠ من دستور أذربيجان أن الدولة تؤمن حرية الاعتقاد في الدين وحرية الوجدان لكل فرد، وهذا يعني أن كل مواطن في أذربيجان له حرية الاعتقاد في الدين . . وفي الطرف الثاني نقرأ في المادة المذكورة بأن أي شخص لايؤمن بالدين لايجبره أي شخص آخر على الاعتقاد في الدين بمعنى أن للمواطن الحرية في اعتقاده بالدين أو عدم الاعتقاد به وليس له الحق في الدعوة إلى الدين وإنما يدعو إلى الإلحاد والمادية وبموجب هذه المادة المساجد والكنائس وغيرهما من بيوت العبادة هي منفصلة عن الدولة والمدرسة وفي خارج اهتماماتها، وتفيد هذه المادة وغيرها من مواد الدستور بأن أي شخص يمنع مواطناً آخر من ممارسة شعائره الدينية يرتكب جريمة يعاقب عليها القانون، وكذلك أن أي رجل دين يقوم بالدعوة الدينية بما يؤثر في العلاقات بين الأخرين ويسيء إلى تنظيم العلاقة بين الدولة وبين المواطنين يعتبر عمله جناية يعاقب عليها القانون أيضاً، وهذا يعني أن أي مواطن يمكنه أن يدرس العلوم الدينية بذاته ويمارس عباداته بدون أن يتعرض للآخرين أو يتدخل في التعليم أو يسيء إلى نظام الدولة.

ويقول رئيس قسم القوانين والحقوق : ويضمن القانون للأفراد البالغين الذين تزيد أعمارهم على ١٨ عاماً حق الاجتماع وتكوين جمعية إذا كان عددهم عشرين شخصاً، وأما إذا كان عددهم أقل من عشرين شخصاً فيمكنهم تشكيل مجموعة ولابد من تسجيل هذه الجمعيات والمجموعات في الدولة حتى تأخذ صفتها الرسمية والقانونية ويتم التسجيل في إدارة القانون والحقوق بموجب المادة ٥٤ من الدستور.

وإذا ظهرت جمعية في المنطقة فلابد أن تؤمن لها الدولة المكان والمساعدات ثم تعطي لها تصريحاً لعقد الاجتماعات ومن يحاول الخروج عن نظام الجمعية يعاقب على ذلك.

ونحن دورياً نجتمع مع مندوب مجلس شئون الأديان لدراسة مثل هذه الأمور وفي سبيل تنفيذ القوانين الخاصة بالاجتماعات والجمعيات في المناطق التي توجد فيها تتوجه لجنة خاصة من الإدارات التنفيذية وهذه اللجنة تشرف على نشاط الجمعيات الدينية.

وفي المؤتمر السادس والعشرين للحزب الشيوعي العام تم التأكيد على أهمية العلاقات الدينية واحترام كل الأديان وخاصة الدين الإسلامي ومن الشواهد على حسن علاقات الدولة بالدين أن مقابلة السيدة رفيقة لشيخ الإسلام الحاج الله شكر باشا زاده جيدة كما أن علاقتنا وصداقتنا مع شيخ الإسلام جيدة جداً وعندما يشترك شيخ الإسلام في اجتماعات المجلس نشعر بأن المجلس قد تنور وحقق نجاحاً.

ثم اختتم حديثه قائلاً: بأن هناك كلمات عربية كثيرة في لغتنا وأسماؤنا عربية وقد جاء ذلك من اللغة العربية، وقد قرأت كتاباً عن تاريخ شروان وقرأت فيه عن هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة المنورة وبناء مسجد قباء وفي بلدنا توجد مدينة قباء وهي من عهد الساسانيين وكانت تسمى كي قباء وهو اسم ملك ويقول بعضهم بأن الجيوش العربية التي دخلت المنطقة إبان الفتح الإسلامي هي التي سمت تلك المدينة قباء ويوجد فيها أقدم مسجد في أذربيجان وبالرغم أنني شيوعي أتمنى لشعبكم وحكومتكم ومنظمتكم النجاح في تحقيق السلام وتطوير الشعوب وإذا كانت اتصالاتنا وثيقة في الماضي فنرجو أن تتعدد زياراتنا وتزداد علاقتنا في الحاضر.

وقد علقت علي كلامه وقلت: لقد عرفنا بأنكم متفهمون لأهداف زيارتنا ورغبتنا في توثيق الصلات الثقافية الإسلامية مع الإدارات الدينية والمسلمين في الاتحاد

السوفييتي وقلتم بأن أحد بنود القانون يشير إلى أن للمواطن الحق في الدعوة إلى الإلحاد والمادية، ولا يحق للمسلم أن يدعو إلى الإسلام ذلك لأن الدعوة إلى الدين تفسد العلاقة بين الشعوب.

وهذا القانون غير عادل أريد التأكيد بأن الإسلام هو دين الصداقة والتآلف، دين المحبة والود وهو يدعو إلى التآخي ليس بين المسلمين أنفسهم فحسب بل بين المسلمين وغير المسلمين لمصلحة ومنفعة الوطن وتاريخ هذه البلاد وثقافتها التي لايزال المسلمون يفتخرون بها في كل مكان مثال حي لدور الدين الإسلامي في بناء الشعوب.

فرد على كلامي رئيس قسم القوانين والحقوق قائلاً بأن الدولة مادية والدين معزول عن التعليم والدولة ويجرى التعليم على المبادئ الماركسية المادية التي تقوم على أسسها الحكومة . . ومع ذلك ممكن لرجل الدين أن يدعو إلى النشاط الديني في الأماكن المخصصة للعبادة وليست المعاهد والمدارس وميادين الدولة وليس من هدف الدولة الدعوة إلى الإلحاد في المساجد وأماكن العبادة.

وبعد تناول الشاي وتقديم هدية الرابطة لنائبة رئيس مجلس الوزراء غادر وفد الرابطة مقر مجلس السوفييت الأعلى بمثل ما استقبل به من الحفاوة والتكريم.

تصريح لمراسل وكالة نوفوستي :

عاد الوفد إلى الفندق فوجدنا في الأنتظار مراسلاً لوكالة نوفوستي السوفيتية واسمه (يحيى أوغلو) وكان موعد مغادرة جمهورية أذربيجان هذه قد أزف فقال إنني أرجو أن أحظى منكم بتصريح في هذه المناسبة مناسبة انتهاء زيارة جمهورية أذربيجان.

فحاولت أن أعتذر منه ولكنه كرر الرجاء وأعانه قوم من الاخوة المضيفين المسلمين هنا فقلت : إننا ونحن نغادر هذه الجمهورية نشعر بالامتنان للإخوة المسلمين في هذه المنطقة ممثلين في الإدارة الدينية وعلى رأسها الشيخ (الله شكر باشا زاده) رئيس الإدارة الدينية.

كما أن وفدنا يشعر بالتقدير لرجال الإدارة في الجمهورية الذين سهلوا مهمة سفرنا وانتقالنا في هذه الجمهورية.

ولقد سررنا كثيراً لاجتماعنا بالإخوة المسلمين هنا والصلاة معهم في مساجدهم سواء في باكو، أو في البلدان الأخرى خارجها وسوف نبلغ إخوتنا المسلمين في المملكة العربية السعودية وخارجها ما شاهدناه من أحوال المسلمين في هذه الجمهورية.

وقد علق المراسل (يحيى أوغلو) على هذه الكلمة بقوله (نتمنى للجميع السلام إن شاء الله).

مغادرة باكو:

في الثانية عشرة والنصف ظهراً تحرك الموكب المؤلف من ثماني سيارات إحداها سيارة عسكرية تتقدمه بهيئتها المميزة وصوتها المعتاد وذلك للسفر إلى مدينة (محج قلعة) أو (محاج قلاه) كما يلفظون به.

وقلاه هي القلعة العربية التي هي الحصن الحصين وهي مما دخل من العربية إلى التركية وما جاورها من اللغات وأما (محج) وبعضهم يلفظ به (محاج) على لفظ مكان الحج فإن هذا اللفظ قد يخدع من يظن أنه عربي أصيل لموافقته لهذا اللفظ ولكن الصحيح أن الكلمة داغستانية محلية وأن أصلها محمد من لغتهم العامية واذاً يكون معنى الاسم (قلعة محمد) قدموا المضاف على المضاف إليه في لغتهم.

وهي عاصمة جمهورية داغستان الاشتراكية السوفييتية المتمتعة بالحكم الذاتي ويلاحظ وصف الجمهورية التي نغادرها الآن وهي جمهورية أذربيجان بأنها اتحادية أو فيدرالية بالإنكليزية ووصف هذه المتمتعة بالحكم الذاتي وذلك أن الأولى جمهورية قائمة بنفسها – كما يقولون – وهذه الثانية التي سنذهب إليها الآن هي ذاتية الحكم أو ذات حكم ذاتي وتكون تابعة لجمهورية أخرى إتحادية.

وهي بالفعل تابعة لجمهورية روسيا السوفييتية الاتحادية التي عاصمتها موسكو رغم مابينهما من المسافة البعيدة.

وكل ماذكر من التسميات هي تقسيمات إدارية داخلية، وليس لها معنى الاستقلال في الحكم أو حتى الاستقلال في الرأي وإنما هي :

ألقاب مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخًا صولة الأسد

وتبعد المسافة مابين مدينة (باكو) ومدينة (محج قلعة) قرابة الأربعمائة كيلو متر قال بعضهم إنها تنقص عن الإربعمائة بعشرين كيلاً وقال آخرون إن النقص هو عشرة والسبب في سلوك الطريق البري إلى (محج قلعة) أن مطارها فيما يقولون يحتاج إلى إصلاح لذلك هو ليس صالحًا لهبوط الطائرات حتى الصغيرة فيه في الوقت الحاضر.

صحبنا في السفر الإخوة المرافقون طول الرحلة الذين قدموا معنا من سمرقند والإخوة الذين أضافونا في باكو ولازمونا منذ وصولنا إليها وعلى رأسهم الشيخ (الله شكر باشا زاده) الذي أكرمنا إكرامًا زائدًا وأهدى إلينا هدايا تذكارية ثمينة.

ولكنه رغم مكانته لم يركب معي في السيارة الواسعة الطويلة المخصصة لرئيس الوفد وإنما ركب معي الصديق العزيز الشيخ الكريم (طلعت تاج الدين) رئيس الإدارة الدينية لمسلمي سيبريا والقسم الأوربي في الاتحاد السوفييتي وكان هذا دأبه منذ أول يوم وصلنا فيه إلى الاتحاد السوفييتي وهو يجيد العربية لأنه قد تعلم في الأزهر حتى أنهى دراسته الجامعية.

وركب معي أيضًا شخص تبين أنه مفيد جدًا لنا وهو الأخ (صابر حسين) لأنه من أهل المنطقة ويعرف من أمورها ما لايعرفه الإخوة المرافقون الآخرون، وكان يقوم بالترجمة إلى العربية طيلة ما مضى من الرحلة في جمهورية أذربيجان وقد تعلم العربية هنا في باكو ثم أكمل تعليمه في معهد الإمام البخاري في طشقند ثم عمل في اليمن لفترة قصيرة.

ويذكر بهذه المناسبة مانوه به الشيخ (الله شكر باشا زاده) وهو الشيعي الوحيد بين مديري الإدارات الدينية في الاتحاد السوفييتي من أن طلاب الشيعة يدرسون في معهد الإمام البخاري البرامج المقررة التي هي كلها لأهل السنة.

أخذ الموكب طريقاً يتجه إلى الشمال حيث بلاد الداغستان ويلاحظ المرء كثرة السيارات في ضواحي باكو بصفة لافتة للنظر وأكرر ماقلته من قبل وهوأن الكثرة هنا نسبية والمراد بها كثرتها بالنسبة إلى السيارات التي توجد في العادة في مدن البلدان الشيوعية وليس بالنسبة إلى السيارات التي توجد في البلدان ذات الاقتصاد الحر.

المصانع والأنابيب والأبراج :

كما يلفت النظر هنا وجود مصانع مما يعتمد على المادة النفطية كمصنع للسماد كبير مررنا به وغيره من المصانع ووجود أنابيب ضخمة تنقل النفط الخام وأنابيب أخرى تنقل غيره ربما من مشتقاته وجزيرة اصطناعية قرب شاطئ البحر تنقل الأنابيب إليها النفط والطريق يحاذى بحر قزوين ولكن المنطقة تتميز هنا بأنها منطقة النفط الكبيرة والقديمة في الاتحاد السوفييتي حتى سميت مدينة (باكو) عاصمة النفط السوفييتية وإن كان مدلول هذه التسمية عاصمة النفط يختلف في هذا البلد الشيوعي عن مدلوله في البلدان الحرة في اقتصادها.

وأبراج الكهرباء هنا تنتشر بكثرة لافتة للنظر ولا أدري السبب إلا أنها أصغر من أبراج الكهرباء التي يراها المسافر في ريف الولايات المتحدة بل هي أصغر حتى من أبراج الكهرباء الموجودة في صحرائنا العربية التي تنقل الكهرباء من محطات التوليد إلى الريف أو القرى المتباعدة.

وشيء آخر لافت للنظر وهو كثرة القطارات التي يدل مظهرها على أنها ليست من قطارات الركاب، وإنما هي من قطارات نقل الأحمال والبضائع.

منظر الصحراء :

لولا هذه الأشياء الواضحة التي هي من صنع الإنسان لاعتقد المرء أنه في الصحراء صحرائنا العربية فالمنظر هو المنظر الصحراوي وشاطئ البحر عار عن النبات بل إن الملوحة على شاطئه ظاهرة بحيث لايرى المرء عليه عوداً أخضر إلا في الأماكن التي يقف الشاطئ الأرضي فيها وقوفاً وهي غير موجودة في هذه المنطقة التي تسير فيها سياراتنا الآن جهة الشمال من باكو.

ولحقنا بقطار طويل قالوا: إنه هو قطار موسكو الذي يذهب إليها من باكو وتبلغ المسافة بينهما ألفين وخمسمائة كيلو متر يقطعها القطار في يومين وثلاث ليال أي يومين بليلتيهما وزيادة ليلة واحدة.

وعندما أمعن الموكب في الريف أو لنقل في الخلاء قل عدد سيارات الركوب الصغيرة في الطريق وبقيت سيارات النقل الكبيرة وهي السيارات الروسية المشهورة التي تظهر عليها القوة من دون مراعاة للذوق حتى طلاؤها لايعتنون به ولكنها بمحركاتها التي ترسل هديراً ضخماً وبأشكالها الكبيرة تشعرك بأن القوم وأعني بهم الروس الذين يسيرون الأمور كلها في البلاد هم أهل جد وصرامة ويسعون إلى ما يقوي بلادهم بالدرجة الأولى قبل أن يسعوا في رفاهية الشعب أو ابتغاء الكماليات له.

إلا أن المرء يلاحظ هنا ما لاحظه في طرقهم بخاصة وفي طرق الصين أكثر وهو عدم السرعة في سير السيارات فالاعتدال فيها هو الغالب ولايرى المرء السيارات الصغيرة الفارهة التي تمر من الطريق كما يمرق السهم من الرمية مثل ماهو عليه الحال في بلادنا أو في البلدان الأوروبية.

قرية إيلاسي :

مررنا بقرية ذكروا أن اسمها (إيلاسي) لم أجد فيها من المناظر مايبعدها عن منظر القرى في بلادنا الصحراوية قبل عقدين من السنين إلا أن بيوتها مسنمة السقوف والمنازل عندنا مسطحة.

ذلك لأن المنطقة ذات مظهر صحراوي يكاد يكون خالصاً للصحراء فهي خالية حسبما نشاهده من الطريق وتقع القرية إلى أيمن الطريق أي جهة الشرق وهذه هي المنطقة التي تشبه الصحراء وليست هناك حقول زراعية حولها.

إلا أن مرافقنا ابن المنطقة الخبير بها الأخ (صابر حسين) قال إنه يوجد جهة الغرب من هذه الناحية نهر صغير يجري بالماء تأتي مياهه من جبال نراها جهة الغرب وقال: إن أصل هذه المياه هي ذوب من الثلوج التي تتراكم على الجبال في الشتاء ثم تبدأ بالذوبان في فصل الربيع الذي نحن فيه الآن.

وحتى الطريق فإنه لايعد شيئاً بالنسبة إلى الطرق الحديثة في بلادنا فهو واحد للسيارات المتقابلة وليس واسعاً وقلت في نفسي: أين هذا الطريق الذي يعتبر مهما بالنسبة إلى طرق بعض المناطق كمنطقة القصيم مثلاً؟

هذا وقد حمدت الله تعالى الذي يسر لنا رؤية هذه المنطقة بالطريق البري هذا إذ لو سافرنا بالطائرة لما تسنت لنا رؤية ما رأيناه.

أشياء لها معنى:

ذكرنا حالة الطريق بأنها ليست جيدة وكذلك القرى التي نمر بها وقلت في نفسي: أهكذا تكون حالة الطرق والأرياف في بلاد دولة عظمى؟.

ولم يطل تساؤلي حتي أبصرت أشياء لها معنى ربما هي من أسباب كون الاتحاد السوفييتي صار دولة عظمى غير سعة الأرض أو عدد السكان لأن هناك بلداناً أكثر منه عدداً في السكان وهي ذات أراض واسعة كالهند وليس لها وزن دولي مهم فضلاً عن أن تعد من الدول العظمى، والشيء الذي لاحظته هنا هو كثرة الأشياء التي تدل على القوة وتورث الهيبة فمثلاً القطارات التي تنقل البضائع والمعدات الثقيلة هي هنا كثيرة كثرة لافتة للنظر والسيارات الضخمة موجودة ربما أكثر من سيارات الركوب الصغيرة في هذه المنطقة الريفية والكثير منها يسير على هذا الطريق كما نراها الآن.

والمصانع التي هي ليست كثيرة ولكنها كلها أو أكثرها مما يكسب الدولة الهيبة مثل مصانع الحديد وتكرير النفط.

مما يعطي الانطباع بأن الدولة السوفييتية تعطي الأولوية لما يقوي هيبتها، وما يعزز صناعة السلاح من طائرات ودبابات ومدافع فيها.

أما رفاهية الشعب ومتطلبات الحياة المدنية له فذلك أمر يأتي في المقام الثاني والثالث من تفكير قادة هذه البلاد هذا إذا كان يجد له مقاماً أصلاً في تفكيرهم.

ونحن الغرباء عن هذه البلاد الذين يكونون في العادة محايدين مابين الحكومة التي تركز كل اهتمامها وتسخر مواردها لما يكسب الدولة القوة العسكرية والمهابة الدولية وبين الشعوب التي تريد أن يكون لها نصيب في الحياة المرفهة المدنية التي يحياها الإنسان المتمدن وبخاصة في بلاد الغرب التي لايفتأ المسئولون في الاتحاد السوفييتي يسبون قادتها ويظهرون مفاسد أنظمتها، نحن نعتبر محايدين ورأيتني أحكم بين الفريقين في نفسي فأقول أولاً: لماذا لايكون الاتحاد السوفييتي هو دولة عظمى في كل المقاييس المادية ومنها المساحة الواسعة التي يشغلها من سطح الأرض وهي تبلغ سدس اليابسة أو لنقل إنه يشغل سدس الأرض إذا استثنينا المناطق المغمورة بمياه البحار.

لماذا لايكون كالولايات المتحدة الأمريكية بل كالدول الغربية المتوسطة الحجم مثل ألمانيا الغربية وفرنسا وبريطانيا التي عملت على مايكسب الدولة القوة ووفرت بأنظمتها الاقتصادية لشعبها حياة راقية حديثة؟

ثم قلت إذا كان هناك عذر لدى القادة السوفييت يعتذرون به عن الجمع بين الاثنين وأهم السبب لذلك وليس العذر هو نظامهم الذي يعتمد على القهر والكبت وعدم الحرية للأفراد فإن السؤال يبقى بهذه الكيفية:

ماذا عما إذا كان لدى قيادة الدولة الخيار بين أمرين لايمكنها الجمع بينهما وهو العمل على قوة الدولة وهيبتها بكافة الأسباب ومنها التسلح والقوة العسكرية ولو أدى ذلك إلى تدني المستوى المعيشي للشعب والحد من الحريات الأساسية للفرد.

والأمر الثاني هو أن يوفروا لأفراد الشعب رفاهية العيش ووسائل الحياة العصرية المريحة ولكن ذلك يكون على حساب هيبة الدولة ومكانتها في العالم وعدم وجود القوة العسكرية حيث زعموا أنه لايمكنهم الجمع بين الاثنين إذ أن ذلك هو الحقيقة بالفعل بمعنى أنهم يستطيعون الإنفاق والعمل على أحد الأمرين دون الآخر؟

ووجدتني أختار الأول لأنه إذا كان الفرد يعيش عيش الرفاهية والهناء في دولة ضعيفة فإنه لن يضمن دوام ذلك لأن الدولة الضعيفة تكون عرضة لمن يضطهدها ويحتقرها فضلاً عن إمكان تعرضها للاعتداء من الدول الأقوى منها في كل وقت.

إضافة الى أن الشعب لن يهنأ برغد العيش ورفاهية الحياة إذا كانت دولته معرضة للإهانة واعتداء الآخرين عليها بسبب ضعف قوتها، وقلة هيبتها.

مع التنويه بما هو معروف من أنه ليس من الضروري لقوة الدولة أن تكون شيوعية، بل العكس هو الصحيح.

غار الأماني:

لقد شط بنا القول فيما ليس من صميم موضوعنا ولكن ما حيلتي في هذا وأنا أرى هذا الطريق وما حوله يشد تفكيري إليه شداً.

ولم يعدني إلى صوابي إلا ما سمعته من قول الأخ (صابر حسين) وهو يشير إلى جبل جهة الغرب يبدو أخضر على البعد ويقول: إن في هذا الجبل مقاماً والمقام هنا وفي كثير من البلاد يعني قبر رجل تعتقد العامة الصلاح فيه.

قال: وهذا المقام في غار يندى منه الماء في بعض الأحيان فإذا ما زاره الزائر سواء أجاء من أجل السلام على صاحب القبر - وأهل المنطقة كما قلت كلهم مسلمون منذ قرون وبعضهم من أهل التشيع - أو جاء لغرض يحتاجه في نفسه فإن الزائر يضع إصبعه على مكان في هذا الغار ويذكر حاجته التي يريد قضاءها

فإن وجد في إصبعه بللاً ولو قليلاً كان هذا عندهم دليلاً على أن حاجته ستقضى وأن رغبته ستجاب أما إذا كان إصبعه يابسًا لاندى فيه فإن العكس وهو الفشل وعدم قضاء الحاجة هو الصحيح.

وقلت ممازحًا للأخ (صابر حسين) وهو تخرج من معهد الإمام البخاري بمعنى أنه قد درس العلوم الإسلامية فضلاً عن أصول الدين: أفعلت مثل هذه الفعلة في حياتك؟ فأجاب بالنفي، وقال: إن كثيراً من الناس يرحلون إلى هذا الجبل لهذا الغرض.

البعير والنفط:

وصلنا منطقة نوه الأخ (صابر حسين) باسمها فقال إنها تدعى (دافاجى) ومعنى ذلك صاحب الجمل يريد صاحب البعير لأن (دافا) الجمل وجي هي النسبة.

فقلت: قد يكون هذا معقولاً لأن المنطقة ذات مظهر صحراوي فقال صابر: وفيها أيضًا شيء يكون في الصحراء بلاد الجمال ألا وهو البترول فالجمل والبترول والصحراء كلها موجودة في بلادكم.

فقلت: هذا صحيح ولكن أخانا وصديقنا الشيخ طلعت تاج الدين وكان معي دائمًا في سيارتي في طول الرحلة في الاتحاد السوفييتي قال وهو من أهل منطقة مجاورة لسيبيريا كما سيأتي ولكن سيبريا فيها بترول وليس فيها جمال.

فقلت: وهذا صحيح أيضًا غير أنه لاينبغي أن ننسى أن الناس يسمون سيبريا أو البقاع القارسة البرد فيها صحراء سيبريا وإذًا اجتمع البترول والصحراء فيها.

فقال الشيخ طلعت: وجملنا – يريد البعير – في سيبريا هو الأيل الضخم وهو نوع من الوعول موجود هناك ويستطيع تحمل درجات البرودة الشديدةالتدني، ولم أر إبلاً في الطريق في هذه المنطقة وإنما رأيت سرْحًا أي قطيعًا من الغنم يرعى في الصحراء التي تشبه صحراءنا في أول الربيع لأن فيها أعشابًا خضرًا وبخاصة في الأماكن المتطامنة من الأرض.

ولذلك كان قطيع الغنم يحوم فوقه غباره وهو يمشي كما هي عليه الحال في صحرائنا العربية.

وينبغي أن نشير إلي أنني أتكلم على هذا السهل الذي يسير فيه الطريق إلى (محج قلعةٍ) عاصمة بلاد الداغستان وإلا فإن الجبال التي نراها غرباً هي ذات مظهر أخضر ولا تشبه جبالنا الصحراوية الجرداء.

وهذه الجبال هي متطامنة ولكنها ممتدة متطاولة وتتصل بجبال القفقاس التي كان أسلافنا الأماجد يسمونها جبال (قفج) بقاف بعدها فاء ثم جيم فنسينا اسمها هذا فيما نسيناه من أمجادنا حتى تسمياتهم للأماكن المهمة في العالم وصرنا نتبع الأوربيين نعلم أولادنا في المدارس ما تعلمناه من الغربيين من أن اسمها جبال القفقاس أو القوقاز.

وأخبرنا الإخوة المرافقون أننا ونحن ذاهبون إلى بلاد (الداغستان) التي أخذ اسمها من وقوعها في هذه الجبال المنيعة (داغ) جبل أو جبال وستان بلاد، فإننا سوف نقترب أكثر فأكثر من هذه الجبال (القفجية) كما هو الصحيح عندنا أو القفقاسية كما تعلمناه من غيرنا حتى نصل بلاد الداغستان التي هي واقعة فيها بالفعل، وقد أشار الأخ صابر إلى أحد الجبال وقال: أرأيت هذا الطريق في الجبل وكان يمكن رؤيته من السيارة في الطريق الأزفلتي إن فيه مقاماً تزعم العامة أنه مقام الخضر عليه السلام وإن القوم يذهبون إليه للزيارة وبعضهم يذهب إليه للتفرج برؤيته ورؤية المنطقة التي يقع فيها لأنها منطقة جبلية جميلة.

ثم مررنا بمنطقة فيها حقول بترول قد تناثرت فيها الآبار بكثرة لافتة للنظر.

ولمناسبة هذه الأعمال قال لنا مرافقونا: إن العمل في الاتحاد السوفييتي يعتبر واجباً على الجميع بمعنى أن الفرد من عامة الناس ليس حراً في أن يعمل أو لايعمل بل هو ملزم بالعمل من قبل الدولة وإذا لم يعمل فإن الدولة تلاحقه وتجبره على أن يعمل، بل قالوا: إنه إذا تكرر منه رفض العمل فإنهم يعاقبونه بعقوبات متعددة منها النفى عن موطنه الأصلي إلى أحد الأماكن غير المرغوب فيها مثل سيبريا.

ومن المناظر التي شدت انتباهي منظر أغنام ترعى ورعاتها من الرجال البالغين، بل بعضهم من المتقدمين في السن وقد وقف يرعى الغنم كما يفعل الأطفال والنساء في بلادنا إذ الأغنام القليلة لايرعاها الرجال البالغون الأشداء.

وأهم مايلفت النظر في زي هؤلاء الرعاة الأذربيجانيين - أو الأذربيين، على حد تعبير بعض أسلافنا من المؤرخين الذين أجازوا في النسبة إلى أذربيجان أن نقول أذربيجاني أو أن تقول: أذربي أو أن تقول أذري.

أهم مايلفت النظر في زي الرعاة هؤلاء هو غطاء الرأس الذي هو قلنسوة أي (طاقية) كبيرة غليظة ارتفعت فوق الرأس أكثر مما يرتفع الطربوش المنشأ الذي أشبع من النشأ - ونزلت إلى الاذنين وأدنى الجبهة وهي مع كبرها غليظة سميكة بل ثقيلة رأيتها على رؤوس الإخوة الذين قابلناهم في هذه البلاد ونشرت صورها فيما سبق.

ولاشك في أن مرد استعمالهم لهذه الطاقية هو البرد الشديد الذي يجتاح بلادهم في الشتاء والقوم مسلمون لايستسيغون أن يضعوا على رؤوسهم ماليس بلباس المسلمين ويذكر أن أهل المنطقة الريفية هذه كلهم من المسلمين بخلاف العاصمة (باكو) التي فيها أخلاط من الروس والأكرانيين الذين حضروا من مناطقهم للعمل أو لغير ذلك من الأغراض وفيهم خليط من الأرمن الذين كان بعضهم قديم السكنى هنا وبعضهم جاء إلى أذربيجان من بلاد الأرمن القريبة ومنها الجمهورية الأرمينية السوفييتية التي هي صغيرة المساحة قليلة السكان بالنسبة إلى بعض الجمهوريات الكبيرة.

ورأيت شيئاً معتاداً في بلادنا وهو هنا قليل بل نادر البروز على الطريق وهو محطة لبيع المحروقات ووقود السيارات ففي بعض البلدان الشيوعية كالصين لايكاد المرء يرى في طرقها محطة واحدة وذلك لقلة السيارات بالنسبة إلى البلدان الحرة في اقتصادها ولأن محطات الوقود مثل أكثر السيارات في البلاد هي ملك للدولة فتكون المحطة في مكان بعيد عن الطريق العام، ويجبر سائقو السيارات على الذهاب إليها لأنه لاتوجد وسيلة أخرى لتزويد سياراتهم بالوقود غير ذلك.

البنت السمراء :

ومن أولى بالبنت السمراء من منطقة في الصحراء؟

مر الطريق بقرية ذات طابع صحراوي فذكرت ذلك للمرافقين فقال الأخ (صابر حسين) إن اسم هذه القرية: (سيازات) ومعناها بلغتهم : البنت السمراء، ولم نر بنتا من بناتهم لنعرف صدق هذه التسمية أو عدم صدقها، ولكن اللاتي رأينا منهن أو على الأدق لمحنا منهن في أماكن مجاورة لقريتهن يدل مظهرهن على مايقرب من ذلك فأهل البلاد بيض بياض السوريين واللبنانيين وقد يتعدى ذلك إلى بياض الأتراك الشماليين.

وأما القرية ذاتها فإن بيوتها مبنية من الحجارة والطين وسقوفها ممالة إلى جهة واحدة بمعنى أنها ليست مسنمة كاملة التسنيم.

والكلام هذا هو عن عامة البيوت فيها وهي المنفردة التي تكون مملوكة للأفراد قد يرثها المرء عن أبيه إذا كان لايملك شيئًا آخر في أي مكان من الاتحاد السوفييتي وهي الطراز الشعبي للبيوت في المنطقة.

ولكن توجد في القرية أبنية حكومية قليلة العدد ولكنها متعددة الطوابق تحتوي على شقق سكنية تؤجرها الحكومة على موظفيها وعمالها ومن يسعده الحظ في الحصول على شقة منها لأن أجر المساكن الحكومية أجر زهيد، وصيانتها وترميم مرافقها تقوم به الحكومة أيضاً.

ولايستطيع الفرد أن يبني له بيتًا في المدن أو داخل القرى الكبيرة إذا توفرت النقود لأن ذلك مقصور على الحكومة أما في الأرياف فيمكن الفلاح أن يبني له بيتًا من المواد المتوفرة محليًا كالطين أو الأخشاب.

مواصلة السير :

تركنا (البنت السمراء) غير حافلين بسمرتها غير البهيجة وواصلنا السير على الطريق البرية هذه فكان من الأمور اللافتة للانتباه أن السيارة العسكرية التي

تتقدم الموكب بنفيرها المميز الذي لاتطلقه إلا عند الحاجة في هذه البرية كأن تقابلها سيارات أخرى وبالمصباح الدوار في ظهرها.

كانت هذه السيارة وهي تتقدم الموكب الطويل نسبيًا تميل إلى الجانب الإيسر في الطريق على خلاف المعتاد في المرور الذي يوجب أن تأخذ كل سيارة من السيارات المتقابلة في الطريق جهة اليمين وذلك إدراكًا من الذين في السيارة العسكرية أن الطريق غير واسعة وهي تريد من السيارات المقابلة أي المقبلة من الاتجاه المعاكس أن لاتضطر سيارات الموكب إلى السير على حافة الأزفلت، فتجعل السيارات المقابلة تضطر إلى الخروج قليلاً عن الخط المزفلت إلى أكناف الطريق الترابية فيثير ذلك غباراً متصاعداً كنا قد نسينا منظره في الطرق المدنية في بلادنا والسيارة العسكرية تفعل ذلك إكراماً للضيوف وحذراً من احتمال اقتراب السيارات المقابلة من الموكب وفي ذلك خطر محتمل من الاصطدام.

هذا وقد بدأ الطريق بالصعود إلى أرض شبه جبلية لأنها تقع في أقدام هذه الجبال المتصلة بجبال القفج - القفقاس - فشعرنا بأن الجو قد لطف هواؤه وزاد برده مع أننا كنا قد أغلقنا نوافذ السيارة منذ تركنا المدينة ولم نفتحها حذراً من الغبار ولكون الجو محتمل الحر داخل السيارة وإن كان يميل إلى البرد في الخارج.

ومن الأشياء في الطريق التي شدت انتباهي بشبهها بأشياء موجودة في الطريق في بلادنا منظر الجسور والعبارات التي يمر فوقها الطريق وهي جافة فقد أقيمت من أجل مياه السيول وليس من أجل مياه الأنهار وهذا هو ماعليه الجسور عندنا.

غير أن الذي يوجد عندهم في أكثر الطريق التى سرنا عليها حتى الآن وليس في كلها هي الأشجار التي غرسوها من أجل الظل وتحسين المنظر ولكنها ليست شاملة للطريق كلها.

وعندما ارتفع الطريق تغير المنظر قليلاً حيث رأينا غابة على جبل عالٍ أيسر الطريق ذكر مرافقونا أن الطلاب زرعوها بأنفسهم في أوقات العطلة، وأنها الآن لاتسقى وإنما يكفيها ذوب الثلوج والمطر في أوقات الدفء، وقرية ذات بيوت

قديمة الطراز مطلية بالجص ونهيرا أومجرى صغيراً من الماء يأتي من الجبال ويمر تحت الطريق متجهاً إلى جهة القرية.

وهذا التحسن في المناظر كان معه سوء حدث في الطريق حيث ضاق عرضه عن ذي قبل، وصارت فيه حفر صغيرة وتشققات لاشك في أن مرجع ذلك إلى سوء تنفيذه في الأصل ثم سرعة السيارات عليه، وربما مكث الثلج فوقه في الشتاء.

وقد أخبرنا الأخوة أن الثلج يسقط على هذه المنطقة في كل عام ولذلك رأينا قلنسوات الرعاة (طواقيهم) كثيفة كبيرة لتناسب الجو في الشتاء ولا أدري لم يرتدونها حتي الآن مع أن الجو غير بارد ولماذا لاتكون لهم قلنسوات خفيفة خاصة بالصيف كما نفعل نحن في شمال المملكة في كون ملابس الشتاء عندنا غير ملابس الصيف.

مدينة قبا:

عرفنا قبل أن نغادر (باكو) أننا سنمر بمدينة اسمها (قباء) فسألتهم عما إذا كان يمكنني أن أصلى في مسجد قباء؟ فأجابوا بالإيجاب وبأنهم قد وضعوا ذلك في برنامج الزيارة وتذكرت ذهابي إلى مسجد قباء في المدينة المنورة وصلاتي فيه، وقلت: حتى التسمية فيها شفاء للذكرى.

ونسيت (قباء) هذه ونحن لانزال نسير على أقدام جبال القفقاس التي رأيناها على جهة اليسار من الجهة الغربية للطريق تماشينا فرأيت واديين واسعين ولكنهما جافان ومع ذلك على جوانبهما الأشجار المثمرة من الخوخ والتفاح وزهور ربيعية جميلة أكثرها ذات لون أصفر بهيج.

ومازال الطريق يعلو في الجبال وإن كان علوا رويدا حتي قالوا لنا: هذه قباء.
وفي الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر كنا ندخل مشارف المدينة.

وهي مدينة ريفية غير معتنى بمرافقها العامة وبخاصة في الطريق فطريقنا الذي جئنا معه لم يزدد حسنا باقترابه منها.

أسرع الموكب دون أن يتمهل فضلاً عن أن يتوقف وهو يقصد (مسجد قباء) وكنت أود أن يتمهل حتى أتمكن من رؤية البلدة رؤية متأنية بل حتى أتحدث مع أهلها ولكن أنى لي ذلك (فالضيف في حكم المضيف).

والمضيف هنا لايود أن يتحدث الضيف إلى أحد إلا مع المرافقين أو بحضورهم وأحياناً لايود أن يتحدث مطلقاً مع غيرهم.



أمام مسجد قباء في أذربيجان

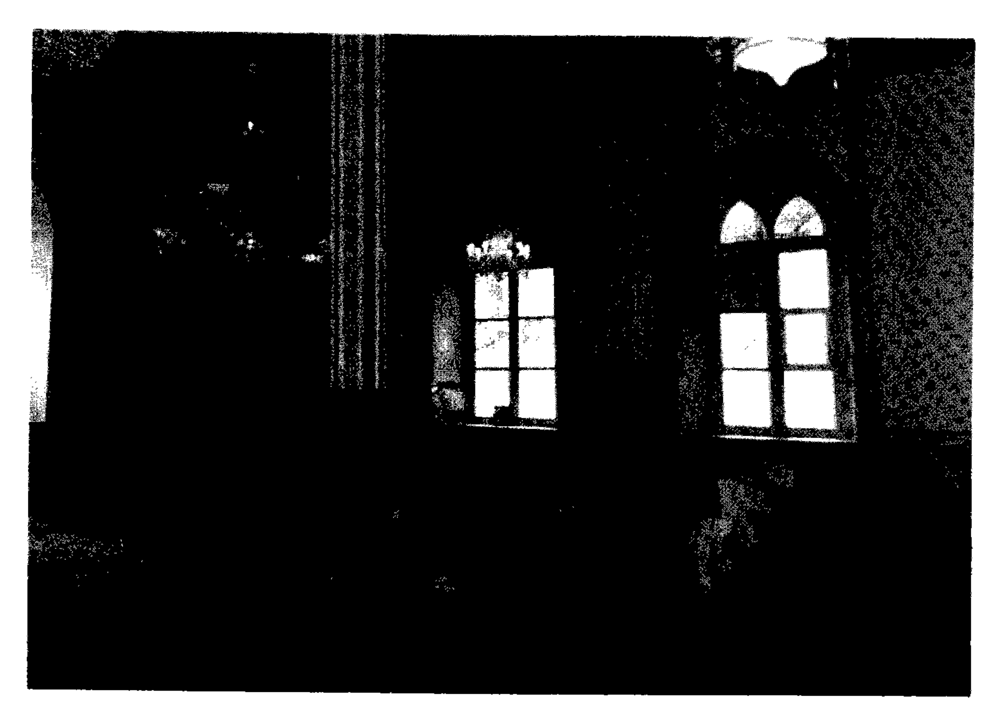
ووقف الموكب عند باب المسجد في شارع غير واسع ووجدنا في الاستقبال جمعاً من الإخوة المسلمين منهم الحاج تقي ووظيفته هي (متولي المسجد) أي رئيس الجمعية التي تشرف على المسجد تجمع التبرعات من المسلمين وتنفقها في مصالح

المسجد وإمام المسجد الأخ محمد يار ورئيس بلدية قباء (إسماعيل خليل) والأخ (شناس أحمد علي).

وكان الجو عندما وصلنا (قباء) باردًا كأنه من أيام أواخر الشتاء في الرياض وقد كان نزل مطر قبل وقت قصير فزاد في البرودة رطوبة مع أننا في الثانية والنصف ظهرًا وكانت في المسجد مدفأة متقدة وقد انتقلنا فور وصولنا إلى قاعة ملحقة بالمسجد وجدنا القوم قد صفوا عليها النقل الذي هو المكسرات والمأكولات الخفيفة ومنها الكعك اللين - الكيك - وأنواع من الجبن وبندق وزبيب وحلويات متنوعه منها واحدة محلية لاتصنع إلا عندهم أمعنا مع الرفاق فيها أكلا وذلك لحاجتنا إلى الأكل كما جاءوا بأنواع من الخبز أيضًا ثم القهوةوالشاي.

وبعد حديث شيق على هذه المائدة اللذيذة انتقلنا إلى المسجد لأداء صلاة الظهر والعصر جمعًا فأراد بعضنا أن ينقض وضوءه ويتوضأ وذهبنا إلى محلات للوضوء ومراحيض بجانب المسجد فرأيناها غير نظيفة مع أنها لاتفتح إلا في أوقات الصلاة وليستعملها المصلون دون غيرهم ورائحتها خبيثة مما يدل على عدم العناية بها.

والغريب أن الأمر في الشارع العام لايكاد يختلف عما في داخل هذه المراحيض إذْ رأينا فيه قناة صغيرة مكشوفة إلا في بعض الأماكن وهي التي تذهب إليها المياه المستعملة وفيها المياه القذرة فتنحدر منها ذاهبة إلى مقرها وذلك لكون المنطقة جبلية متدرجة في الارتفاع وإن لم يكن ارتفاعها حادًا وهذه عادة رأيتها في البلدان الاستوائية المتأخرة في إفريقية وآسيا وحتى في البحر الكاريبي ولم أكن أتصور أنها يمكن أن توجد في هذه البلاد المتقدمة صناعيًا وهي الاتحاد السوفييتي.
وقد صلينا الظهر والعصر جمعًا نحن وبعض المرافقين ولم يصل معنا أحد من أهل المدينة لأن الوقت غير وقت صلاة معتادة.



الوفد يؤدي الصلاه في مسجد قباء في أذربيجان

مع العلم بأن أهل هذه المنطقة هم من الشيعة وقد رأينا في المسجد لافتات تمجد علياً رضى الله عنه وتذكر أهل البيت الكرام بعبارات فيها من الغلو ومجاوزة الحد في المدح أكثر مما فيها من الاعتدال.

حديث عن قباء :

على المائدة كان حديث من الجميع عن شئون المسلمين في هذه البلاد وكان الحديث الأول عن تسمية قباء وكيف أسموها بذلك أهو تيمناً باسم (قباء) في المدينة المنورة؟

وقد ذكروا أن الامر ليس كذلك وإنما سمي المكان على اسم ملك اسمه (كي قبا) كان قد عسكر في هذا المكان ولكن لمحبة المسلمين في قباء التي في المدينة المنورة اسموها (قباء) وصاروا يؤكدون أنها سميت بذلك تيمناً بالاسم المدني الشريف.

وقالوا عن المدينة إنها تبعد عن باكو عاصمة أذربيجان التي تتبعها قباء (مائة وسبعين كيلو مترًا)، وذكروا أن سكانها مع ضواحيها يبلغ عددهم مائة واثنى عشر ألف نسمة.

وذكروا لنا أن عدد المساجد في قباء أربعة آخرها بناء هذا الذي نحن فيه وقد بني في عام ١٣٢٥هـ في زمن قياصرة الروس وقبل الحكم الشيوعي في البلاد.



داخل مسجد قباء المؤلف يتكلم واقفًا والأستاذ صابر حسين يترجم

وقد ألقيت في جمع المسلمين كلمة في مسجد قباء بعد أن صلينا وأفهمتهم الحكمة من جمع الصلاتين في السفر وبخاصة في حالة مثل حالتنا هذه كما أخبرتهم بأسباب قدومنا إلى هذه البلاد وأن أهم تلك الأسباب هي الاتصال بالإخوة المسلمين والاطلاع على أحوالهم والعمل على تقوية الروابط الأخوية الثقافية معهم إلى جانب أشياء مهمة ذكرتها لهم.



صورة تذكارية مع بعض القائمين على مسجد قباء داخل المسجد

مغـــادرة قبـــاء :

غادرنا مدينة قباء بوداع حافل من أهلها الذين تجمعوا عن قصد فكان بعض الأطفال والنساء الذين رأوا موكب السيارات واجتماع الناس حوله يشاركون في الوداع بعيونهم أو بأيديهم يلوحون بها عند مغادرة الوفد.

وسرنا مع شوارع فيها تثير السيارات فيها غباراً ربما كان ناشئاً عن موقعها في منطقة جبلية تأتي السيول ومياه الأمطار إليها بطين ناعم يجتمع مع الزمن وييبس بسرعة ولاشك في أن مثل هذا الغبار يمكن مكافحته بسهولة لو استعملوا ما استعملناه في مدننا من السيارات التي ترشف غبار الشارع ثم تجمعه وتلفظه بعيداً عن المساكن لذهب ذلك عنهم.

ومررنا بالنهر الذي تقع عليه المدينة واسمه (قوديال) ثم خرجنا منها على واد منخفض يجري فيه النهر الذي رأيناه نزر المياه.

ومررنا بعد ضواحي المدينة بمحلة ذكروا أنها كانت قرية صغيرة منعزلة عن باقي المدينة وأن سكانها هم قوم من يهود الجبال وهي جبال القفج - أي القفقاس - وأن لهؤلاء اليهود الذين يسمون بيهود الجبال لغة خاصة بهم لايفهمها اليهود الذين يسكنون في الوديان.

وقد رأيت جماعات منهم في القرية دون أن نتوقف للحديث معهم فلم أر في مظاهرهم سواء من حيث الألوان أو من حيث اللباس مايميزهم تميزاً ظاهراً عن بقية السكان وإن كان المرافقون قد ذكروا لنا أن لهم شكلهم الظاهر المميز كما يعرفه أهل هذه البلاد.

إلى باب الأبواب :

استخفني الطرب ، وهاجني الشوق إلى رؤية (باب الأبواب) فكدت استحث السائق على سرعة السير مع أن عادتي أن أحث السائق على التريث وعدم العجلة وذلك لما قرأته عن (باب الأبواب) هذه التي أبلى فيها المسلمون الفاتحون المجاهدون بلاء حسناً وقتل منهم من قتل دون أبوابها قبل الفتح ثم فتحها الله على المسلمين فبقيت دار مسلمين منذ القرن الأول الهجري حتى الآن، واسمها هنا (دربند) وهي كلمة فارسية معناها الباب المغلق فدر : باب وبند : مغلق.

وعندما ترجمها أسلافنا العرب الفاتحون لم يترجموها ترجمة حرفية بالباب المغلق وإنما سموها الباب أو باب الأبواب و(باب الأبواب) يكون أكثر إحكاماً من الباب المفرد الواحد.

وعلى أية حال فلن أستبق القول فيها الآن وقد بقي على الوصول إليها زهاء خمسة وثمانين كيلو متراً.

وهي تقع في جمهورية داغستان التي عاصمتها مدينة محج قلعة وليست في جمهورية أذربيجان هذه التي نحن فيها الآن والتي عاصمتها (باكو) وقد بقيت على الحدود بين الجمهورتين السوفييتين ٣١ كيلو متراً.

السائق السكران مجرم :

واصلنا السير على الطريق الذي بدأ القوم يصلحونه هنا ويسعون في توسعته وقد رأينا بعضه مغبراً لأن السيارات تخرج عن الطريق الأزفلتي لأنه تحت الإصلاح.

وبدت الأرض هنا أكثر أعشاباً وأوفر مراعي ولاشك في أن مرجع ذلك إلى ارتفاعها بالنسبة إلى التي مررنا بها قبلها، ولذلك كثرت فيها قطعان النعاج التي تبدو متفرقة وليست في قطعان كبيرة وذلك شأن الغنم الشخصية أي التي يملكها أفراد وليست مملوكة للدولة فهؤلاء يجمعونها عند راع معين يذهب بها إلى المرعى لقاء أجر معين، ورأيت مكاناً منخفضاً مزهراً من زهر ربيعي أبيض ترعاه هذه الأغنام.

ومما لفت انتباهي هنا لافتة قد كتبوا عليها عبارة عجيبة صادقة ترجمها الإخوة المرافقون لنا وهي باللغة الروسية رغم كون هذه البلاد بعيدة عن بلاد الروس الأصلية وتقول هذه اللافتة (السائق السكران مجرم) أي الذي يسوق سيارته وهو سكران يعتبر مجرماً لأنه سوف يسبب الكوارث لغيره حتي لمن لم يخطئ من السائقين الذين يستعملون الطريق مثله.

وهذه اللافتة من لافتات كثيرة هي جزء من حملة الحكومة السوفييتية على شرب الخمر ومحاربتها بوسائل كثيرة ومنها أنهم حرموا بيعها إلا في ساعات محددة مابين الثانية ظهراً والسابعة مساءً كما حرموا بيعها في يومي السبت والأحد عسى أن يحد ذلك من شرائها ومن ثم شربها وحرموا تقديمها في طائراتهم على جميع الرحلات الداخلية كما سبق، وهم ينطلقون في حملتهم هذه من تجربة

عرفوها ووفق دراسات واحصاءات أجروها على شعوبهم وعرفوا من ذلك عظيم ضررها على الناس في أموالهم وأبدانهم بل وفي علاقاتهم الاجتماعية، وفي ضعف إنتاجهم في الأعمال.

ولو كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر لقلنا لهم إنها أيضاً مضرة بأديان الناس كما هي مضرة بأموالهم وأبدانهم.

وقد بدأوا هذه الحملة المركزة ضد الخمور والمسكرات منذ سنة واحدة فقط.

ومن المعلوم أن سكان البلدان الباردة يشربون الخمور - في العادة - أكثر مما يشربها غيرهم بحجة أنها تنفع من البرد فتبعث الدفء في الجسم ثم تكون هذه عادة عندهم حيث يشربون الخمر حتى في الأوقات التي لايحتاجون فيها إلى الدفء مثلاً.

وليس هذا موضع تفنيد الزعم بكون الخمر تدفئ فهى تدفئ بموجب إحساس كاذب يتولد عند شاربها لأنها تدفع بالدم إلى خارج الجسم تحت الجلد فيحس شاربها بالدفء ولكن ذلك يعقبه برد شديد بعد أن ينحسر مفعولها من الجسم مثلما أن شارب الخمر يشعر عند شربها بنشوة عظيمة ماتلبث بعد أن يذهب مفعول الخمر أن تنقلب إلى غم وانقباض لايزول في الغالب إلا إذا عاود شرب الخمر مرة ثانية كما قال أبو نواس.

وكأسا شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

ومن الغريب أن هذه الأمور التي أجرتها هذه الدولة العصرية الملحدة لم نسمع بكونها قد رميت بسببها بالرجعية والتخلف ولا شك في أنها لو نفذتها دولة مسلمة لقام مدعو التقدم والمدنية، والمدافعون - بزعمهم عن الحريات الشخصية -ينكرون ذلك ويستنكرون فرضه في هذا العصر الذي هو عصر الحريات والتقدم، بل لعدوا هذا الفعل من أجل تنفير الناس منه من أفعال عهود الظلام والرجعية والعودة إلى العصور القديمة عصور التعصب الديني والغلو المذهبي.

هذا وكلما أمعن الطريق في الارتفاع وهو أيضًا يوغل في الشمال حسن منظر الأرض وقد رأينا هنا حقول قمح نضر ذكروا أنه يزرع أول الشتاء فيمنعه البرد من النبات على وجه الأرض وينزل عليه الثلج فتبقى جذوره حية قوية حتى إذا حل الربيع وذابت الثلوج خرج قويًا نضرًا سريع النمو ويسمى القمح الشتوي.

كما كثرت رؤية أشجار العنب القصير ذي الشجرات المتفرقة ولايكون للشجرة عندها عريش وضحك الإخوة المسلمون المرافقون عند رؤية أشجار العنب وهى تكثر شيئًا فشيئًا على الطريق وقالوا: إن هذا النوع من العنب كان يستخرج منه النبيذ المسكر أما الآن وبعد أن قامت الحكومة بحملاتها المكثفة على الخمور ومنها الحد من مصانع النبيذ فإن هذا العنب لايصلح الآن إلا لأن يعصر ويشرب عصيره كما تشرب الأشربة الأخرى غير المسكرة وهي رخيصة بالنسبة إلى أسعار المسكرات.

ولكن مزارع العنب هذه الكثيرة هي في أكثرها إن لم تكن في جملتها مملوكة للدولة وتستطيع الدولة أن تستغني عن زراعتها بزراعة أشجار أخرى نافعة غير العنب، أما أشجار العنب القليلة التي يملكها أفراد من الفلاحين الذين هم هنا في جملتهم من المسلمين فإن باستطاعتهم أن يجعلوها زبيبًا نافعًا لهم، وإن كان رخيص الثمن.

على الحدود:

وقفنا عند جسر فوق نهر نزر المياه، بل لاتكاد توجد فيه مياه تستحق الذكر يسمى نهر صامور يؤلف واديه الحدود بين جمهوريتي أذربيجان وداغستان من هذه الجهة فرأينا علم الجمهورية التي وصلنا إليها وهي جمهورية داغستان السوفييتية يرفرف ووجدنا الأهم من ذلك وهم طائفة من الأخوة الكرام أهل داغستان على رأسهم الشيخ محمود بن ذي القرنين كيكي رئيس الإدارة الدينية لمسلمي شمال (القفقاس) و(درويش بيك سلطان أحمد) وكيل فرع شئون الأديان في الجمهورية ورئيس بلدية دربند فلاديمير فلسوڤيتش نواشكو وهو غير مسلم

ومظهره مظـهر الأوكرانيين والروس الشمـاليين ، ومع الشيخ أئمـة المساجد وعدد من طلبة العلم الذيـن تخرج بعضـهم من معهد الإمام البخاري في طـشقند وبعضـهم تعلم الـقرآن ومبادئ العربية فـي داغستان نفسها وهـي كانت مشهورة بمحبـة أهلها تعلم العربـية حتى بلغنا ونحن في بـلادنا أن بعض الآباء يشترطون فيـمن يتقدمون للزواج من بنـاتهم أن يكونوا يعرفون العـربية وذكر لنا أن العربية شـائعة في بلاد الداغستان أكـثر من شيوعها في البلـدان التي تقع عنها جنوباً أي أقـرب إلى البلدان العربية بكثير مثل بلاد الجمهورية التركية.



صورة تذكارية مع الاخوة الداغستانيين الذين استقبلوا وفد الرابطة

في حدود داغستان مع أذربيجان

وعند هذه النقطة من الحدود ودعنا الإخوة المرافقون من جمهورية أذربيجان وانتقلنا إلى موكب الإخوة المستقبلين من أهل داغستان.

وللحديث عن الرحلة في داغستان كتاب آخر عنوانه: (بلاد الداغستان) والله المستعان.

دراسة عن أذربيجان[1]

أذربيجان . . . طبيعتها واقسامها:

أذربيجان بلاد اشتق اسمها من اسم القائد اتروباتيس (أي الذي تحميه النار) الذي أعلن استقلالها في عهد غزو اسكندر المقدوني لفارس عام ٣٢٨ق.م وبذلك حفظ مملكته التي كانت قائمة في الركن الشمالي الغربي من القطر الذي عرف فيما بعد بفارس. ومع مرور الزمن توسع المدلول الجغرافي لاسم أذربيجان وأطلق الساسانيون اسم أذربيجان على أراضيهم الشمالية التي تمتد لغاية سور دربند الذي أقاموه لصد غارات الخزر.

وفي عام ١٩٢٦ اكتشفت هيئة تنقيب أثرية برئاسة باهوموف نيبرغ Pahomov Niberg مخطوطاً يحمل عنوان: مفتش أذربيجان لأعمال الضرائب .. في مدينة دربند يعود إلى العهد الساساني.

واليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب العباسي المتوفى عام ٢٧٨هـ/٨٩١م يذكر عن غزوات الخزر في شابران وشروان وموغان وأردبيل من أعمال أذربيجان، أما المؤرخ الإمام أبوجعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى ٣١٠هـ/٩٢٣م فيشير إلى حدود أذربيجان على أنها تبدأ من همدان وزنكان في الجنوب إلى دربند في الشمال، وأن مقر إمارة أذربيجان كان في دربند أحياناً وفي برذعة أحياناً وفي بعض الفترات في أردبيل، وعندما استقل اتابك شمس الدين ايلدكيز بولاية أذربيجان في نهاية حكم السلاجقة اتخذ تبريز عاصمة له، وأما الشريف الإدريسي المتوفى عام ٥٤٨هـ/١١٥٤م في خريطة له عام ١١٥١م فصل فيها أجزائها كالآتي:

---

(١) أعد هذه الدراسة الأخ الأستاذ رحمة الله بن عناية الله أمين سر الوفد، فله الشكر.

(أ) أرض أذربيجان وتشمل شروان وتقع مابين جبال القفقاس ونهر كور وقصبتها شماخى.

(ب) بقية أرض أذربيجان وتشمل أران وتقع مابين نهرى كور واراس وقصبتها برذعة – وكتبت أيضاً بردعة.

(جـ) بلاد أذربيجان وهي أذربيجان الإيرانية الحالية وعاصمتها تبريز والتي هى الآن مدينة في شمال غرب إيران.

وإذا كانت أذربيجان تقع مابين همدان ودربند على رأى المؤرخ الطبرى، فإن حمد الله القزويني يحدد موقعها مابين باكو وخلخال. وأما الرحالة التركي أوليا جلبى في القرن السابع عشر الميلادي فإنه يعرف قره باغ باسم أذربيجان الصغرى، وفي كتب التاريخ الإيرانية لهذه الفترة يستعمل اسم خانات أذربيجان على الممالك الصغيرة في شمال نهر اراس وجنوبه، كما أطلق على خانات بلاد القفقاس التي احتلها الروس أيضاً اسم خانات أذربيجان واستعمل المؤرخ الروسي الدكتور بوراكوف اسم الأذربيجانيين وخانات أذربيجان على الممالك الإسلامية المجاورة لبلاد جورجستان، وفي أوائل الاحتلال الروسي لمنطقة جنوب القفقاس كان المسلمون يصفون أنفسهم بالترك أو بالاذاربين، ولم يكن اسم التتار شائعاً بينهم.

والبروفيسور مرزا قاسم بك الأستاذ في جامعة قازان صنف لغة المنطقة باللهجة الاذارية الجنوبية للمتحدثين بها في إيران وباللهجة الاذارية الشمالية للمتحدثين بها في القفقاس وذلك في كتاب له عام ١٨٤٧م.

ويتضح مما سبق بأن أذربيجان تقع في جنوب جبال القفقاس على ساحل بحر قزوين (الخزر) الغربي وتكون حدودها الأصلية نهر صامور في الشمال وجبال بهرة في الجنوب وبحر قزوين (الخزر) في الشرق وبحيرة أرمية في الغرب، وتنحصر عموماً مابين خطوط ٤٤ – ٥١ طولاً و٣٦,٢° – ٤٥,٦° عرضاً، وتقدر مساحتها الإجمالية بحوالي ٢٠٠,٠٠٠كم٢.

وأذربيجان التي يغلب على طبيعتها الجبال والهضاب وكثرة المجاري المائية يقسمها نهر اراس حاليًا بالعرض إلى نصفين سياسيين هما:

أولاً : أذربيجان الجنوبية التي تتبع إيران حاليًا وتعرف بأسم استاني صوم (وتقدر مساحتها ١٠٦٠٦٥كم٢ وتنقسم إداريًا إلى جزأين هما:

(أ) أذربيجان الشرقية وتضم تبريز – أردبيل – سراپ – گرمرور – اهر – بشفين – استارا – ومركزها مدينة تبريز.

(ب) أذربيجان الغربية وتشمل خلخال – باكو – خوى – سلماس – ارمية – اشنو – سوج بولاق – مراغه – ميانه – بيجار – غروس، ومركزها مدينة ارمية وبها عرفت البحيرة التي باسمها وقد بلغ سكان أذربيجان الجنوبية التي استولت عليها إيران عام ١٨١٥ حوالي (٥٤٠٠٠٠٠ نسمة) عام ١٩٨٥، ويتبع معظم السكان المذهب الجعفري الشيعى، وتعد تبريز عاصمة أذربيجان التاريخية وأكبر مدينة فيها إذ يقدر سكانها ٧٥٠٠٠٠ نسمة تقريبًا في عام ١٩٨١.

ثانيًا : أذربيجان الشمالية هي التي تعرف باسم جمهورية أذربيجان الاشتراكية السوفيتية وتشكل إحدى الجمهوريات الخمس عشرة التي تكون اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية، ومع أن مساحتها بلغت ٩٤١٣٧كم٢ حتى عام ١٩٢٠، إلا أن الحكم الشيوعي اقتطع منها إقليمي قره يازى وبور جالى الذين أعطيا إلى جورجيا في أعقاب احتلال القوات الشيوعية لها ثم تنازلت حكومة أذربيجان السوفييتية عن إقليمي القازاق وزنكيزور لأرمينيا مما أدى إلى قطع الاتصال المباشر مع أقليم نخجوان. وهكذا تضاءلت مساحة أذربيجان في الوقت الحاضر حيث أصبحت ٨٦٦٠٠كم٢.

وبلغ سكان جمهورية أذربيجان السوفياتية ٦٦١٤٠٠٠ نسمة عام ١٩٨٥ ويتبع أهالي الجنوب على حدود أذربيجان الإيرانية المذهب الشيعي الجعفري، أما المسلمون في الشمال على حدود داغستان فهم على المذهب السنى الشافعي، وتضم

جمهورية أذربيجان السوفييتية أقاليم موقان واران وشروان التي ذكرها جغرافيو العرب وعاصمتها حالياً مدينة باكو التي تقع في جنوب دربند على بحر قزوين وهي مركز النفط والغاز وقد أشار الإصطخرى المتوفى عام ٣٤٠هـ/٩٥١م إلى نفطها وتبسط ياقوت الحموى وغيره في الكلام عن هذا النفط وقد بلغ إنتاجه ٢١ مليون طن عام ١٩٧٠م ولكن هبط إنتاجه إلى ٢,٥مليون طن في عام ١٩٨٩.

تاريخ أذربيجان الإسلامي :

لعبت أذربيجان دوراً في تاريخ العالم القديم ، حيث جرت على أراضيها حروب دولة ميديا القديمة ومملكة أشور ومعارك إمبراطورية الاحميديين واليونانيين وعبرتها قوات الإسكندر المقدوني وتنازعتها دول بارتيا والروم ثم الساسانيين والبيزنطيين، كما عبرتها شعوب مختلفة من حيثيين وسومريين وساكاو الخزر والأليريين والفرس والعرب والترك والمغول وغيرهم.

وقبل الفتح الإسلامي كانت أذربيجان تحت الحكم الساساني الذي أخذها من البيزنطيين بموجب اتفاقية عقدت بين الطرفين عام ٣٨٠م حصل الساسانيون بموجبها على أذربيجان والأقاليم الشرقية من أرمينيا وجورجيا.

وبعد انتصار جند الإسلام على الفرس بسقوط عاصمتهم المدائن في عام ١٦هـ/٦٣٧م وفتح نهاوند الذي سمى بفتح الفتوح عام ٢٠هـ/٦٤١م توجهت الفتوحات العربية صوب الشمال وقد اشترك ثلاثة قواد من الصحابة رضوان الله عليهم في فتح أذربيجان وهم:

١ – حذيفة بن اليمان رضى الله عنه الذي دانت له أردبيل عام ١٨هـ/٦٣٩م حيث صالحه مرزبانها بدفع جزية قدرها ثمانمائة ألف درهم على أن لايقتل المسلمون أحداً من أهل أردبيل ولايسببه ولايهدم بيت نار.

٢ – استمر سراقة بن عمرو في فتح مدن شمال أذربيجان حيث استولى على شروان وموقان ووصل إلى دربند (باب الأبواب) عام ٢٢هـ/٦٤٣م حيث حاصرها عبدالرحمن بن ربيعة الباهلي ولما أطال الحصار كتب إليه ملكها

شهريزار بطلب الصلح فأجيب إليه، وقد أستشهد سراقة بن عمرو في باب الأبواب في أواخر عام ٢٢هـ واستخلف على الإدارة عبدالرحمن بن ربيعة.

٣ - ثم ولى عمر بن الخطاب أمر أذربيجان عتبة بن فرقد السلمى فدخل عتبة أردبيل بيد أن بهرام بن فوخزاز حشد جيشاً من أهل أذربيجان لصد استكمال فتح أذربيجان ونشبت المعركة بينهما ولما خسرها بهرام استسلم أهل أذربيجان وكتب عتبة بن فرقد عهداً لهم تضمن الأمان لسهلها وجبلها وحواشيها وشغارها وأهل مللها على أنفسهم وأموالهم وملكهم وشرائعهم مع أداء الجزية على قدر طاقاتهم.

وامتد فتح عتبة حتى مدينة أرمية، ولما كان عام ٢٥هـ/٦٤٦م عزل عثمان ابن عفان عتبة عن أذربيجان وولاها الوليد بن عقبة بن أبي معيط ولكنها تمردت جميعاً ونقض أهلها عهدهم السابق، فتوجه الوليد بن عقبة إليهم بجيش على مقدمته عبدالله بن شبيل الأحمسى فأخضعهم وصالحهم على مثل صلح حذيفة بن اليمان وعتبة بن فرقد السلمى، ثم بث سراياه إلى الكورو البلاد المجاورة حيث فتح سلمان بن ربيعة الباهلي موقان والبيلقان وبرذعة في أران ثم سار نحو أرس والكر وصالحه صاحب سكر وغيرها على الاتاوة وصالحه ملك شروان حتى وصل مدينة الباب وحاول فتح مدينة بلنجر في بلاد الخزر ولكنها استعصت عليه وقد سمع نبأ مقتل الخليفة عثمان بن عفان فعاد منها عام ٣٢هـ.

وفي خلافة علي بن أبي طالب تولى أمر أذربيجان سعيد بن العاص الأموى حينا والأشعث بن قيس الكندى حينا آخر وكانت الفتوحات الإسلامية قد مهدت لقدوم هجرات عربية للاستيطان فيها والمشاركة في الدعوة الإسلامية حتى إذا كان عهد الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه كانت الحركة الإسلامية قد قطعت شوطاً كبيراً، إذ يستفاد من رواية البلاذرى أن أكثرهم أسلموا وقرأوا القرآن وأن الخليفة أنزل أردبيل جماعة من أهل العطاء والديوان من العرب ومصرها وبنى مسجدها.

وكان شيوخ العرب ينزلون نواحى شتى منهم رواد الأزدي في إقليم تبريز وبعيث الربيعة في مرند ومر بن علي الرديني جنوبي بحيرة أرميه، ثم اندمج العرب شيئًا فشيئًا في الأهالي الوطنيين.

وفي عهد الأمويين أخذ الحكم العربي يستقر في أذربيجان التي غدت ثغرًا إلى بلاد الخزر حيث سار إليها ثبيت النهراني في أيام الوليد بن عبد الملك ولما انهزم المسلمون عزله يزيد بن عبدالملك وولى بدلاً منه الجراح بن عبدالله الحكمي الذي دخل مدينة الباب بغير قتال وصالح الترك على مال يؤدونه وفي عام ١٠٧هـ أيام هشام بن عبدالملك عزل الجراح بن عبدالله وولى مكانه أخاه مسلمة بن عبدالملك الذي جلب حاميات عربية كثيرة إلى أران واتخذ برذعة قاعدة للعمليات الحربية ضد الخزر وأرسل الحارث بن عمرو الطائى إلى فتح رستاق وانتصر المسلمون على الخزر عام ١١٠هـ وأسكن مسلمة بن عبدالملك باب الأبواب أربعة وعشرين ألفًا من عرب الشام ولكنه عزل عن الولاية وعاد إليها الجراح بن عبدالله ثم سعيد ابن عمرو الحرشى ثم أعاد هشام بن عبدالملك أخاه مسلمة إلى الولاية ثانية وفي عام ١١٤هـ تولى الولاية مروان بن محمد فواصل الجهاد في بلاد الخزر ونشر الإسلام وقد استتب الحكم الإسلامي في أذربيجان في أواخر عهد الأمويين.

وعلى أثر قيام الخلافة العباسية ولى أبو جعفر المنصور يزيد بن أسيد السلمي ولاية أذربيجان التي بقيت تحت الحكم العربي الذي كان قويًا إبان عصر ازدهار الخلافة العباسية الأولى ثم عمت الفوضى وبدأ الاضطراب والفتن يضرب أطنابها في أذربيجان إذ اندلعت فتنة بابك الخرمى وبدأ يثير الفزع بين الناس في عام ٢٠١/٨١٦م وسير المأمون إلى بابك يحيى بن معاذ عام ٢٠٤هـ/٨١٩م ولكن يحيى بن معاذ فشل في إخضاعه وتفاقم شر بايك الخرمي. ولم ينته أمره إلا بوقوعه أسيرًا في يد الإفشين حيث سلمه إليه سهل بن سنباط أمير شكى – شمالي نهر الكر عام ٢٢٣هـ/ ٨٣٨م.

ثم تراخت قبضة الخلافة على أذربيجان بعد فتنة بابك الخرمى ونشطت الحركات الانفصالية بين الأمراء المحليين عن الخلافة العباسية بعد ولاية بغا التركي حيث استقل بنو ساج بحكم أذربيجان من عام ٢٧٦هـ إلى عام ٣١٧هـ وكانت مراغة عاصمة هذه الأسرة في أول الأمر ثم نقلت بعد ذلك إلى أردبيل ثم جاء بعدهم بنو شداد وهكذا إلى أن حل السلاجقة في حكم المنطقة وتوطد ملكهم بدخول السلطان طغرل بك مدينة تبريز عام ٤٤٦هـ/١٠٥٤م، واتخذ ألب أرسلان أذربيجان قاعدة لعملياته الحربية ضد البيزنطيين.

وعندما انهارت دولة السلاجقة انقسمت أذربيجان إلى دولتين إحداهما دولة الأتابكة التي أقامها اتابك شمس الدين ايلد كيز في كنجه حتى سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م والأخرى دولة شيروان شاه التي أسسها أبو المظفر مانجور شاه في شماخى بإقليم شروان حتى عام ١٥٥١م.

ثم أنتهت المعارك التي دارت بين جنيكيز خان وجلال الدين خوارزم شاه بغزو المغول لأذربيجان ودخولهم مدينة تبريز عام ٦٢٨هـ/١٢٢٩م ومدينة كنجه عام ١٢٣٧م ومدينة دربند عام ١٢٣٩م ثم اتخذ هولاكو مدينة مراغه عاصمة له خلال عملياته الحربية في الشام والعراق والتي ثبت تاريخياً بأن هيثوم ملك أرمينيا كان مدبرها.

وقد ازدهرت أذربيجان في حكم غازان خان ملك الايلخانيين المسلم وبلغت تبريز أقصى درجات البهاء والرونق في عهده الذي ألف فيه رشيد الدين فضل الله الهمذاني كتاب جامع التواريخ وهو عصر ازدهار لحكم المغول قاطبة.

وبعد ذلك منذ عام ١٣٣٦م تعرضت أذربيجان لحروب داخلية اندلعت معاركها بين حسن بزرك جلاير من الايلخانيين في تبريز وحسن كوجك جوبان من التركمان في موغان وأسرتيهما في بسط سيادتهما على أذربيجان كلها وقد غزاها تيمور لنك عام ٧٨٦هـ/١٣٨٤م ثم استعاد سيادتها السلطان أحمد الجلايرى عام ٨٠٩هـ ثم ظهر قره يوسف أحمد تركمان قره قويونلى المستوطنين في شاطئ

نهر الرس حيث تمكن من بسط سلطانه على البلاد مؤسساً إمارة قره قويونلى التي دامت إلى عام ١٤٦٧م ثم انتقل الحكم إلى أسرة آق قويونلى التي بدأت باستيلاء اوزون حسن بايندرى زعيم تركمان اق قويونلى على مدينة تبريز عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م.

ينتسب الصفويون وهم عشيرة تركمانية إلى الشيخ جنيد داعية المذهب الشيعي في أردبيل الذي تزعم نشر هذا المذهب بالقوة بين سكان أذربيجان المسلمين وأكثريتهم من السنة في ذلك الوقت، ولكن وقف امراء شروان وآق قويونلي له بالمرصاد فقتل وتولى إسماعيل الأول الذي تلقب بالشاه الزعامة في جيلان عام ١٥٠٢م واحتل شروان وشماخى ودربند وباكو وفي أردبيل أعلن قيام الدولة الصفوية، ولم يتوان الحاكم الجديد عن فرض المذهب الشيعي على الناس. واستعمل القسوة مع كل من كانت تحدثه نفسه بالمعارضة وقد نبش جثث أسلاف آق قويونلى وأحرقها، وأدى هذا إلى استنجاد المسلمين بالعثمانيين فدخل الجيش العثماني مدينة تبريز عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م ثم دخلها السلطان سليم دخول الظافر المنتصر في ٦سبتمبر ١٥١٤م وبالرغم من معاهدة اماسية التي تمت بين العثمانيين والصفويين عام ١٥٥٥م لم تتوقف الحرب بينهما، بل باتت أذربيجان ميداناً لمعارك هاتين الدولتين بين كروفر وكانت الغلبة للأتراك العثمانيين في الأكثر.

ثم ظهر على مسرح الأحداث نادر شاه افشار الذي قضى على دولة الصفويين ووقع معاهدة السلام العثمانية الإيرانية عام ١٧٣٢ التي بموجبها غدا نهر أراس فاصلاً بين حدود الدولتين في أذربيجان.

لم يستمر حكم نادر شاه طويلاً إذ توفى عام ١٧٤٧م، كما لم ينجح خلفاؤه في حماية ملكهم فقد استطاع أغا محمد مؤسس الأسرة القاجارية المالكة في إيران من بسط سلطانه على أذربيجان الجنوبية حيث احتل مدينة تبريز عام ١٧٩٠م، كما أدى انشغال الدولة العثمانية في حروب البلقان إلى ظهور خانات شبه مستقلة في أذربيجان الشمالية منها:

١ – خانية شيكى التي أسسها حاجي جلبى في إقليم شيكي عام ١٧٤٧م ثم احتلتها روسيا في عهد ملكها إسماعيل خان عام ١٨١٩.

٢ – خانية باكو التي أنشأها مرزا محمد عام ١٧٤٧ واستولى عليها الجنرال الروسي سيسانوف Tsitsiyanof في عهد ملكها قل حسين خان عام ١٨٠٧.

٣ – سلطنة ايليسو Ilisu (زاهور) وهى زقاتالا الحالية ظهرت هذه السلطنة في أراضي قبيلة لزغى الجورجية التي أسلمت وشكلت دولة مستقلة في القرن السادس عشر الميلادي وحافظت على كيانها إبان الحكم العثماني، ثم استقلت عنه عام ١٧٤٧م إلى أن وقعت تحت الاحتلال الروسي عام ١٨٠٣ ولكن استمر وجودها في حكم ذاتي لغاية ١٨٤٤.

٤ – خانية كوبا تأسست على يد حسين علي خان عام ١٧٢٦م ثم تمكن ابنه فتح علي خان من ضم دربند وشماخر إلى ملكه ولكنها انتهت بدخول القوات الروسية إليها عام ١٨٠٦.

٥ – خانية شروان ظهرت خلال الحكم العثماني عام ١٧٢٢م ثم احتلها نادر شاه عام ١٧٣٤ ولكن ملكها مصطفى خان استعاد سيادتها إلى أن غزاها الروس عام ١٨٢٠م.

٦ – خانية قره باغ شكلها علي خان زعيم قبيلة جوانشير عام ١٧٤٩ واحتلتها روسيا في عهد ملكها قل مهدى خان عام ١٨٢٢.

٧ – خانية كنجه تشكلت عندما استقلت عن إيران عام ١٧٢٢ ثم أعلن شاه وردى خان زياد أوغلوا استقلالها عن الدولة العثمانية عام ١٧٤٧ وجاهد ملكها جواد خان في الدفاع عنها ضد الغزو الروسي ببسالة نادرة إلى أن استشهد بجوار مدفعه في ٢ يناير ١٨٠٤.

٨ – خانية تاليش تأسست عام ١٧٤٧م ولكن روسيا احتلتها في ٣١ ديسمبر ١٨١٢ ثم تنازلت إيران عنها لروسيا بموجب معاهدة كلستان عام ١٨١٣.

٩ - خانية ناخجوان أسسها جعفر قولى خان بعد زوال حكم نادر شاه عام ١٧٤٧ ثم استولى عليها أغا محمد مؤسس الدولة القاجارية في إيران وسمل عيني أميرها غالب علي خان عام ١٧٩٥م، ثم استولى عليها الروس في عهد أميرها كريم خان كانغرلى عام ١٨٢٥ وبموجب معاهدة تركمان جاى في ٢٢ فبراير ١٨٢٨ تنازلت فارس عن خانية ناخجوان لروسيا التي ألفت هذه الخانية في عام ١٨٤٠.

الغزو الروسي لأذربيجان :

كانت الحروب التي أشعلها الشاه عباس الصفوى ضد العثمانيين في أذربيجان في ٢١ أكتوبر ١٦٠٣ وتحالف شاهات فارس مع دول أوربا ضد سلاطين آل عثمان فرصا استغلها ملوك روسيا في زحفهم نحو بلاد القفقاس بعد استيلائهم على خانية استراخان عام ١٥٥٦ وخاصة أن قيصر جورجيا استنجد بروسيا ضد المسلمين الداغستانيين عام ١٥٨٦ ومع أن القوات الروسية دخلت داغستان عام ١٥٩٤ إلا أنها منيت بهزائم متلاحقة حتى قاد بطرس الأول قيصر روسيا بنفسه حملة على القفقاس وعاد منها بعد أن احتل مدينة دربند في ٢٣ آب عام ١٧٢٢ ومدينة باكو في ٢٥ تموز ١٧٢٣. بيد أن الحكم الروسي لم يدم طويلاً إذ أمرت الإمبراطورة آن بإخلاء المدينتين وسحب القوات الروسية إلى خط نهر تيرك القديم عام ١٧٣٧.

وتمكن نادر شاه الذي تولى مقاليد الحكم في إيران آنذاك أن يبسط سلطانه على بلاد القفقاس التي تجزأت إلى خانيات صغيرة بعد موته عام ١٧٤٧م وتطلع خانيات داغستان إلى حماية الدولة العثمانية لصد التوسع الروسي الذي تجدد في عهد كاترينا الثانية باحتلال مزدك ١٧٦٣م وغدت بلدة مزدك قاعدة لعمليات الغزو العسكري لدول القفقاس، كما اتخذتها الكنيسة الأرثوذكسية نقطة انطلاق النشاط التنصيري بين قبائل القفقاس، وفرضت سيطرتها على بلاد قبرطاى التي فصلتها عن الدولة العثمانية بموجب معاهدة بلغراد عام ١٧٣٩ وفشلت مساعي

الدولة العثمانية الدبلوماسية في إجلاء الروس عنها واستمرت روسيا على إثارة النصارى الأرثوذكس في أوكرانيا والبلقان وتحريضهم ضد الدولة العثمانية مما أجبر العثمانيين على الدخول في حروب مع روسيا وحليفتها النمسا انتهت بهزيمتهم وتوقيع معاهدتي كوجوك قنيارجه عام ١٧٧٤ وياش عام ١٧٩٢م، بموجبهما استولت روسيا على بلاد القريم وأقليم كوبان وبلاد الشركس والشيشان في شمال القفقاس.

وكان سقوط المجاهد الشيشاني الإمام منصور أسيراً في معركة ضد الروس في أنابا عام ١٧٩١ حافزاً على مزيد من الغزو والتوسع العسكري الروسي علاوة على أن معاركها وحروبها مع الأتراك العثمانيين وخانيات القفقاس وأذربيجان عام ١٧٤٦ ثم زحف أغا محمد القاجارى شاه إيران لاحتلال القفقاس عام ١٧٩٤م ودعوة هراقليوس الثاني حاكم تفليس وخليفته جورج الثاني عشر ملك جورجيا لقيصر روسيا دافعاً لإتمام غزو القفقاس وكان الاثنان يدبران الدسائس ضد الأمراء المسلمين.

وقد بعث الملك جورج الثاني عشر سفارة إلى بتروسبورغ يرجو القيصر الروسي بول أن يقبل تاج جورجيا إلى الأبد في عام ١٨٠٠م واستجاب القيصر الروسي له ودخل الجنرال لازاريف جورجيا بعد أن خسر المسلمون بقيادة الشيخ محمد خان الاوار المعركة في ٧ أكتوبر ١٨٠٠ ودفع هذا التحالف الصليبي القيصر إسكندر الأول على تعيين تسيتسانوف Tsitsianof وهو أصلاً من أمراء جورجيا قائداً عاماً على القوات الروسية في جورجيا في سبتمبر ١٨٠٢ وبدأ هذا الأمير الجورجي الذي عرف بالمكر والدهاء غزواته بضم إمارتي منغرليا Mingreli وامريتيا Imeritia لروسيا في ٢٥ أبريل ١٨٠٤ وكان قد توجه نحو خانية كنجه بدعوى أنها كانت تتبع جورجيا أيام ملكتها تمارا.

ودخلها بعد أن قتل حاكمها جواد خان في ٢ يناير ١٨٠٤.

وكتب تستيستانوف إلى القيصر الروسي يفاخر بقتل خمسمائة من التتار المعتصمين في أحد المساجد في مدينة كنجه التي سماها اليزافتبول Elizavetpol على اسم الإمبراطورة اليزافيتا وتسمى حالياً كيروف آباد.

ثم واصل سيره لاحتلال خانية كوبا عام ١٨٠٦ وبعد أن تم له ذلك حاصر مدينة باكو وأظهر أميرها حسين قولى خان الرغبة في تسليمها إلى يد الجنرال تسيتستانوف نفسه وعندما اقترب هذا القائد الروسي مع معاونه الأمير أرستوف انقض عليهم الوطنيون بنيرانهم وقتل الاثنان وتراجع الجيش الروسي إلى شمال أراضي داغستان في ٨ فبراير ١٨٠٦. ثم تولى الجنرال غلا زيناب Glazenap الذي كان قائد الخط قيادة القوات الروسية وجمع فلولها المنهزمة واستعاد بها مدينة دربند في ٢٣ يونيه ١٨٠٦ ثم استولى على مدينة باكو في ٣ سبتمبر ١٨٠٧ وأعاد استيلاء روسيا على مدينة أنابا في ١٨٠٧ وفشل القائد الروسي الجنرال جودوفيتشي في الاستيلاء على خانية اريوان عام ١٨٠٨ ثم تولى الكونت تورمازوف Tormazoff قيادة القوات الروسية واستطاع بمساعدة الأمير الجورجي أوربلياني Orberliani من احتلال مدينة بوتى عام ١٨٠٩ ثم ضم إليه غوريا وابخازيا وصوخوم في عام ١٨١٠.

ثم استولت روسيا على خانية تاليش في ٣١ ديسمبر ١٨١٢ ثم خانية شيكى في عام ١٨١٩ وخانية شيروان عام ١٨٢٠ وخانية قره باغ عام ١٨٢٢ وخانية ناخجوان عام ١٨٢٥ وخانيه اريوان عام ١٨٢٦.

وقد استغلت روسيا معاهدة تركمان جاى التي وقعتها مع إيران في ٢٢ فبراير ١٨٢٨ في إحكام قبضتها في أذربيجان الشمالية بعد أن تنازلت عنها إيران، واعترفت بنهر اراس فاصلاً بينهما.

كما أن تحالف القوى الصليبية في إثارة القلاقل والثورات في البلقان ضد الدولة العثمانية التي أدت إلى توقيع معاهدة ادرنه مع روسيا في ١٤ سبتمبر ١٨٢٩ أطلقت يد روسيا في تنفيذ سياستها الاستعمارية في القفقاس بالرغم من جهاد المسلمين ومقاومتهم البطولية ضد الغزو الروسي الذي تحالفت معه الطوائف المسيحية في جورجيا وأرمينيا وتعاونت القوى الصليبية الحاقدة في أوربا معه.

وقد أثبت المسلمون بقيادة الشيخ شامل الغمرى كفاحاً نادراً وبطولات فذة ضد استبداد الحكم الروسي دام ٢٥ سنة، حيث استمر هذا الجهاد الإسلامي إلى عام ١٨٥٩ ولم تتمكن الدولة العثمانية من دعمهم بسبب الحروب التي شغلتها في أوربا وآسيا، بل تعرضت لمشاكل اقتصادية واجتماعية بسبب تدفق اللاجئين المسلمين الفارين من الحكم الروسي الذي شن عليهم حروباً شرسة بغية تنصيرهم.

ومع أن روسيا أمنت على وجودها وحدودها من إيران إلا أن معاركها مع الدولة العثمانية استمرت بين كروفر حتى إذا وقعت معاهدة برلين في ١٣ يونيه ١٨٧٨ ضمنت روسيا بموجبها باطوم في جورجيا على البحر الأسود واختطت روسيا لتوسعها الاستعماري أسلوبي الغزو العسكري والاستيطان الروسي، وأدى هذا التوسع الروسي إلى مخاوف الإنجليز على مستعمراتهم في الهند ودخولهم إيران لإثارة الفتن واستغلال التدهور الاقتصادي والأمني على فرض سيطرتهم عليها واكتساب امتيازات تجارية وسياسية.

وقام الزعماء المسلمون بالتنديد بمظالم الاحتلال الروسي واستبداده ودعوة المسلمين إلى التآزر والتآخي والجهاد والتحرر وكان مشروع استغلال نفط باكو الذي بدأ في عام ١٨٥٩ قد أدى إلى زيادة التهجير الروسي إلى أذربيجان وتعسفهم فيها ولعبت الصحف والمجلات الإسلامية مثل ايكنجى Ekinci والضياء وكشكول وملا ناصر الدين والاتفاق على إثارة مشاعر المسلمين وحميتهم، حيث تمخض عنها ظهور نخبة من المفكرين السياسيين والوطنيين أمثال أحمد أغا أوغلو وحسن باي زردابي وهاشم وزير ومحمد أمين رسول زاده ضمهم حزب وطني تشكل عام ١٩٠٤ وفي عام ١٩١١ انقسم هذا الحزب بتأثير من الحركات الاشتراكية والشيوعية الروسية إلى جناح يميني معتدل عرف باسم حزب المساواة تزعمه السيد محمد أمين رسول زاده - وتزعم الجناح اليساري الذي عرف باسم حزب همت ناريمان ناريمانوف الذي غد رئيساً للحزب الشيوعي الأذربيجاني عام ١٩١٨.

على أي حال فقد لعب حزب المساواة دوراً كبيراً في تاريخ أذربيجان الإيراني والسوفييتي على السواء إلى أن تخلص جوزيف ستالين منهم بتهمة الوطنيين البرجوازيين في أذربيجان السوفيتية في ثلاثينات القرن العشرين.

كما عمل المسلمون الأذاريون في حركة الاتحاد الإسلامي لمسلمي روسيا الذي عقد اجتماعه الأول في نيجيني نوفغراد Nijni Novgrad في أغسطس ١٩٠٥ وقرر هذا الاجتماع الإسلامي تشكيل مؤتمر إسلامي لعموم المسلمين في روسيا.

روسيا والأرمن:

بعد أن فشل الصليبيون في حروبهم ومنيت حملاتهم بالهزائم المتكررة في البلدان العربية، وتقدم الاتراك العثمانيون إلى أوربا بعد سقوط القسطنطينية معقل الإمبراطورية الرومانية ومركز المسيحية الأرثوذكسية عام ١٤٥٣م، انكسرت شوكتهم والتجأ زعماؤهم إلى إمارة موسكو وأراد الصليبيون استعادة مجدهم الزائل بقيام إمبراطورية جديدة في إمارة موسكو بدلاً من الإمبراطورية الرومانية، وأصبح أمير موسكو الارثوذكسي قيصراً ومدافعاً عن الكنيسة الأرثوذكسية، وتجددت الحروب الصليبية في الشرق لكن ضد المسلمين الترك والتتار، وجد الروس في تدبير المؤمرات لإثارة الاضطرابات واستغلالها لاحتلال بلدان المسلمين.

وعمل بطرس الكبير قيصر روسيا للاستفادة من الأرمن في غزو بلاد القفقاس حيث بعث خطاباً إلى إيفان كارابت أحد زعماء الأرمن الدينيين في عام ١٧٢٢، وقد تضمن طلب القيصر مساعدة الأرمن لروسيا في غزو القفقاس مقابل إنشاء وطن لهم على ساحل بحر قزوين، وقد استجاب الأرمن لطلبه وتمكن بطرس الكبير بمساعدتهم من احتلال باكو عام ١٧٢٣ وداغستان عام ١٧٢٧.

وفي عام ١٧٩٩ قام القس الأرمني كاتا غيفوس هوسب ارغوتين برفع خطاب إلى قيصر روسيا يطلب منه تحقيق إنشاء وطن للأرمن يكون حداً فاصلاً بين روسيا وجيرانها المسلمين وفي الاتفاق الذي تم مع الأمير الروسي بوتمكين تقرر إنشاء مملكة لهم مقابل تحالف الأرمن مع روسيا في حروبها ضد المسلمين والتحاق ٦٠٠٠٠ جندي أرمني في الجيش الروسي في القفقاس.

والواقع أن إنشاء مملكة للأرمن لم يكن سهل المنال لأن الأرمن لايشكلون أكثرية إلا في خمس قصبات من ٥٤ قصبة في القفقاس ولكن التحالف الصليبي بين الأرمن داخلياً والروس الغزاة مكن القوات الروسية من احتلال القفقاس وتوقيع معاهدة تركمان جاى في ٢٢ فبراير ١٨٢٨ التي قضت بجعل نهر أراس حداً فاصلاً بين إيران وروسيا وسارع الروس إلى جعل اريوان أو يريغان كما يكتبها الأرمن قاعدة لإقامة دولة أرمينيا الكبرى، وهي خانية إسلامية استقلت عن إيران على يد حسن علي عام ١٧٥٦ وفشل هرقليوس الثاني ملك جورجيا التابع لروسيا في إخضاعها إبان ملكها محمد خان عام ١٧٨٩ كما فشلت روسيا في الاستيلاء عليها بالمحاصرة أو بالغزو في ١٧ نوفمبر ١٨٠٨ ولكنها الحقت بموجب معاهدة تركمان جاى عام ١٨٢٨.

وكان المسلمون يشكلون ٨٣٪ والأرمن ١٧٪ من جملة السكان البالغ عددهم ٣١٠٠٠ نسمة حينذاك، ثم تغيرت نسبة المسلمين إلى ٥٤٪ والأرمن إلى ٤٤٪ في عام ١٩٢٠.

والواقع أن حكومة روسيا عملت لتحقيق وعدها في إنشاء وطن للأرمن في القفقاس بوضع خطة على تجميع الأرمن وتوطينهم في جنوب القفقاس منذ أن بدأ غزوهم العسكري فمثلاً نصت معاهدة تركمان جاي عام ١٨٢٨ ومعاهدة ادرنه في ١٤ سبتمبر ١٨٢٩ على أن للمسيحيين الحق في المهاجرة إلى هذا الإقليم واستفاد من هذا النص معظم رعايا شاه إيران من الأرمن فهاجرت قرى بأكملها وخلت بقاع بأسرها حيث بلغ عدد المهاجرين منها ٧٠٠٠٠ أرمنى استقر معظمهم في ناحية قره باغ كما قدم إليها ٩٠٠٠٠ أرمني من قارص وارضروم في تركيا للاستيطان في نخجوان واريوان وقره باغ، وفي عام ١٨٣٩ قدم إليها ١٠٠٠٠٠أرمني من روسيا للاستيطان في اريوان وما جاورها.

ومع عملية توطين الأرمن بدأت سياسة استئصال الوجود الإسلامي بقتل المسلمين وإكراههم على الهجرة والنزوح وكان رجال جماعة طاشناق الأرمينية

بحماية روسيا يقومون بالإغارة على قرى المسلمين وقتلهم وسلبهم، بل كان الجيش الروسي يشترك معهم لإخلاء القرية من سكانها المسلمين وتسليمها للأرمن.

وهذه الرعاية مكنتهم من إشغال ٩٠٪ من الوظائف في أذربيجان، بيد أن روسيا التي اكتشفت اتصال الأرمن ببريطانيا وتأييد الإنجليز الذي يطمعون في احتلال البصرة ويتطلعون إلى نفط باكو لدعم مخطط الأرمن في إنشاء أرمينيا الكبرى، أخذت بالإقلال من اعتمادها على الأرمن وبدأ غولتسين Golitsin والي القفقاس العام الروسي على توظيف الأتراك الاذاريين لإيجاد موازنة بينهم ولكن أحد المسلمين الأرمن أصابه بجرح بليغ أضطره إلى ترك العمل في أكتوبر ١٩٠٣ ثم تولى ق. اى. ناقاشزه الجورجي والي باكو مكانه وسار على نهج سلفه.

ودفع هذا الأمر بالأرمن إلى تهديد المسلمين وتخويفهم بالقتل والإرهاب، وعلى أثر مقتل اذارى في باكو في ٦ فبراير ١٩٠٥ وقع صدام مسلح بين الأرمن والأذاريين دام لأكثر من عام وأدى إلى تشريد آلاف المسلمين.

وقد أثار ذلك حمية المسلمين وغيرتهم فى التفكير فيما يمكنهم من حماية أرواحهم وممتلكاتهم ضد غارات الأرمن وهجماتهم فقد قام المفكرون الاذاريون ومنهم أحمد أغا أوغلو وناقي كيكورون وعلي أكبر بتشكيل جبهة وطنية باسم (الدفاعي) في عام ١٩٠٥، وكان هدفها كما جاء في بيان الجبهة (توحيد الجهود وتعزيز القوى الوطنية وتوثيق روابط الأخوة الإسلامية لمقاومة هجمات جماعة طاشناق الأرمنية ضد المسلمين).

وبالإضافة إلى ذلك ظهرت عدة أحزاب أذربيجانية منها حزب (المساواة) بزعامة السيد محمد أمين رسول زاده وحزب (همت) بزعامة ناريمان ناريمانوف ونشطت الحركة الثقافية التي بدأها حسن باى زردابى بإصدار جريدة يكنجي عام ١٨٧٥.

وقد تفاعلت الحركات الوطنية مع الظروف السياسية التي أدت إلى الثورة الروسية عام ١٩١٧ وكان النداء الشهير الذي أذاعته الزعامة السوفييتية بتوقيع لينين وستالين في ١٥ نوفمبر ١٩١٧ بضمان الحريات الإنسانية والحقوق الوطنية واحترام الإرادة القومية قد غرر بالمسلمين وزعمائهم وجرى انتخاب ممثلين لشعوب القفقاس للمشاركة في اجتماع مجلس التأسيس الروسي العام وفي اجتماع عقده هؤلاء الممثلون في تفليس في ١٩١٧/١٢/٢٤ تم إعلان حكومة ماوراء القفقاس.

وقد أثارت هذه الحركة مخاوف البلاشفة وخاصة أنه كان من الصعب لحكومتهم الجديدة أن تستقر اقتصادياً بدون عائدات نفط باكو، فعين لينين ستيفان شاوميان بلشفى من حزب طاشناق صوتيون الأرمني مفوضاً عاماً بصلاحيات استثنائية على القفقاس في ١٩١٧/١٢/١٨ وقد طلب لينين وستالين منه توطيد الحكم السوفييتي في القفقاس وإيجاد دولة أرمينية في شرق الأناضول تحت الحماية الروسية وذلك بمرسوم صدر بتوقيعهما في ١٩١٨/١/١١.

وكان أفراد حزب طاشناق صوتيون الأرمني والقوات الروسية بقيادة بيجروف Bichorov يسيطران على باكو فاستعان استيفان شاوميان بهما على تشكيل حزب عمالي بزعامته يضم الأرمن والروس وفرض سيطرته على مدينة باكو في ١٨ مارس ١٩١٨ وفي ٣٠ مارس ١٩١٨ أمر أتباعه بالهجوم على المسلمين وبلغ ضحاياهم في يوم واحد في باكو وحدها ١٧ ألف قتيل ثم استمرت هذه المذبحة الرهيبة التي سميت بمذبحة مارس ثلاثة أيام واشترك فيها من زعماء الأرمن كاباريجه Caporidze وأما زابس Amazops وافتيسوف Avetisov في كل من شماخى كوردمير ولينكران وساليان وكوبا ونواخى وقدر عدد قتلى المسلمين بحوالي ٢٨ ألف قتيل.

أدت هذه الاضطرابات العنيفة إلى تقهقر القوات الروسية من جبهة القفقاس ولم تتمكن حكومة ماوراء القفقاس من صد تقدم القوات العثمانية واستعاد الأتراك

بموجب معاهدة برست ليتوفسك Brest Litovsk أراضيهم التي فقدوها عام ١٨٧٨ واضطرت حكومة ماوراء القفقاس أن ترسل بعثة برئاسة جانق علي تضم ٤٣ شخصاً يمثلون مسلمي القفقاس إلى تركيا وعقدت المباحثات بين الطرفين في طرابزون فيما بين ١٤ مارس - ١٤ أبريل ١٩١٨ ونقل المسلمون إلى إخوانهم الأتراك حقائق المذابح التي ارتكبها الأرمن بمساعدات السلطات الروسية ومباركة الإنجليز لهم وكان الجورجيون يحظون بتأييد ألمانيا وهي حليفة تركيا ولكنها لاتريد أن يذهب نفط باكو إلى الأتراك. وبينما يطالب الجورجيون بمدينة بأطوم، فالأرمن يطلبون من تركيا إعادة إقليم قارص إليهم.

وأمام هذا التباين طلب ممثل تركيا في هذه المباحثات حسين رؤوف بك من الجميع الإلتزام بمعاهدة برست ليتوفسك وطلب إعلان استقلال حكومة القفقاس كاملاً حتى تتمكن من التفاوض مع تركيا، وتقدم وهيب باشا بجيشه نحو ساري كاميش ولم يتمكن الأرمن بقيادة نازاربكوف من صده وسار كاظم قره بكير باشا بالفرقة الأولى نحو قارص.

وحيال هذا التقدم التركي أعلن مجلس تفليس قيام جمهورية ما وراء القفقاس الفيدرالية في ١٩١٨/٤/٢٢، واستؤنفتِ المحادثات مع تركيا في مدينة باطوم في ١١ مايو ١٩١٨ ولكن مع اختلاف مطالب الأرمن الذين يساندهم الإنجليز والجورجيون ويقف وراءهم الألمان ومطالب المسلمين الذين يتعاطف معهم الأتراك أدى بالمفاوضات إلى طريق مسدود ودفع بتركيا إلى طلب قيام ثلاث دول مستقلة. وفي يوم ٢٦ مايو ١٩١٨ عقدت حكومة جمهورية ماوراء القفقاس الفيدرالية اجتماعاً قررت فيه مايلي: «مادام هناك اختلاف كبير بين شعوب ماوراء القفقاس حول مفاهيم الحرب والسلام مما يصعب معه قيام حكومة واحدة تحقق مطالب هذه الشعوب كلها فقد تقرر حل حكومة جمهورية ماوراء القفقاس الفيدرالية، وعلى أثر هذا البيان قامت الجمهوريات التالية :

١ – جمهورية القفقاس الجنوبية في ١١ مايو ١٩١٨.

٢ – جمهورية أذربيجان في ٢٨ مايو ١٩١٨.

٣ – جمهورية جورجيا في ٢٦ مايو ١٩١٨.

٤ – جمهورية أرمينيا في ٢٦ مايو ١٩١٨.

ووقعت حكومة تركيا مع الجمهوريات الثلاث معاهدة باطوم في ٤ يونيه ١٩١٨ ومع ذلك لم يستتب الأمر في جنوب القفقاس إذ تجددت المعارك بغزو الأرمن لإراضي أذربيجان بعد أن تقوت شوكتهم باعتراف تركيا بجمهوريتهم وباركت روسيا مساعدة بريطانيا وحلفائها لهم فاستنجد الأذاريون بتركيا لحمايتهم من الأرمن الغزاة فتقدم الجيش التركي بقيادة نوري باشا لمساعدة الاذاريين لاستعادة مدينتهم باكو في ١٥ يونيو ١٩١٨ ودخلت القوات التركية التي تمركزت في ناخجوان إلى مدينة تبريز عاصمة أذربيجان الجنوبية في ١٨ يونيه ١٩١٨، واستغلت بريطانيا بالاتفاق مع روسيا دعوة الأرمن لها لإرسال قواتها بقيادة الجنرال دونسترفيل Dunsterville الذي أحتل باكو في ١٧ أغسطس ١٩١٨ وجعل قره باغ مركزاً لعملياته الحربية واستمرت الحرب بين الأرمن والأذاريين من جهة وبين بريطانيا وتركيا من جهة ثانية في باكو بين كروفر.

ثم وقعت معاهدة سدروس التي تضمنت خروج القوات التركية والبريطانية من أذربيجان في ٣٠ أكتوبر ١٩١٨.

وفي ٢٨ ديسمبر ١٩١٨ اعترف الجنرال و.م. تومسون قائد القوات البريطانية والحلفاء بجمهورية أذربيجان التي ضمت حدودها أقاليم زنكيزور وقره باغ وناخجوان عند إعلان استقلالها في ١٩١٨/٥/٢٨ وقد أعترفت دول الحلفاء بجمهورية أذربيجان وحدودها أعترافاً واضحاً في مؤتمر فرساى في ١٢ يناير ١٩٢٠ ولكن القوات الأرمينية جددت اطماعها في التوسع العسكري في أوائل عام ١٩١٩ فاستولت على الكساندربول (لينينكان) وقارص من تركيا واصطدمت بجورجيا من أجل أخا لخلقي كما أصطدمت مع أذربيجان من أجل قره باغ.

ودخلت القوات التركية من جديد الحرب مع أرمينيا وصاحبها احتلال الجيش السوفييتي الأحمر لجمهورية جورجيا في فبراير ١٩٢١ وجمهورية أرمينيا في ديسمبر ١٩٢٠ وجمهورية أذربيجان في ٢٧ أبريل ١٩٢٠ وانتهت الحرب إلى تغيير الخريطة السياسية لجنوب القفقاس حيث تنازلت تركيا عن باطوم لجمهورية جورجيا التي ضمت إليها نواحي اخالخلقى واخا ليجيخ واستعادت تركيا أراضي قارص واردهان واعيدت قره باغ وناخجوان إلى أذربيجان كما كان عليه الحال عند استقلال أذربيجان في ١٩١٨/٥/٢٨.

جمهورية أذربيجان السوفييتية الاشتراكية :

فقد تولي رئاسة جمهورية أذربيجان الوطنية السيد محمد أمين رسول زاده رئيس حزب المساواة الأذربيجاني الذي بلغ عدد ممثليه ٣٣ شخصاً في البرلمان الأذربيجاني البالغ ١٢٠ عضواً، كما كان السيد علي مروان طوبجي باشا سكرتير عموم مسلمي روسيا في ١٩٠٥/٨/١٥ هو رئيس البرلمان بيد أن هذه الحكومة الوطنية لم تدم أكثر من ٢٣ شهراً إذا أحتلها الجيش الأحمر في ٢٧ أبريل ١٩٢٠ ثم شكل الروس جمهورية أذربيجان الاشتراكية السوفييتية برئاسة ناريمان ناريمانوف رئيس الحزب الشيوعي الأذربيجاني الذي أعلن خضوعه لروسيا والاكتفاء بالحكم الذاتي لأذربيجان في ٢٨ أبريل ١٩٢٠ وفي ١٢ مارس ١٩٢٢ أصبحت أذربيجان عضواً ثالثًا في جمهورية القفقاس الاشتراكية السوفييتية الاتحادية التي شملت أيضًا جورجيا وأرمينيا وفي ٥ ديمسبر ١٩٣٦ أنهى هذا الاتحاد الفيدرالي ودخلت جمهورية أذربيجان الاشتراكية السوفييتية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية باعتبارها جمهورية من جمهورات الاتحاد الخمس عشرة.

أما التوزيع السكاني لأذربيجان في إحصائية عام ١٩٧٩ فهو كالآتي :

الاذاريون	٤٧٠٩٠٠٠	بنسبة ٧٨,١٪	مسلمون يشكلون نسبة ٨٢,٠٥٪
الداغستانيون	٢٠٥٠٠٠	بنسبة ٣,٤٪	
التتار	٣١٠٠٠	بنسبة ٠,٥٪	
الطاط	٨٨٤٨	بنسبة ٠,١٥٪	
الروس	٤٧٥٠٠٠	بنسبة ٧,٩٪	
الأرمن	٤٧٥٠٠٠	بنسبة ٧,٩٪	
اليهود	٣٥٠٠٠	بنسبة ٠,٥٪	
الاوكرانيون	٢٦٠٠٠	بنسبة ٠,٤٪	
الاودين	٥٨٤١	بنسبة ٠,١٪	
طوائف أخرى	٨٤٢١١	بنسبة ١,٥٪	
المجموع العام	٦٠٢٧٠٠٠	بنسبة ١٠٠٪	

وقد بلغ عدد سكان باكو عاصمة أذربيجان ١٥٥٠٠٠٠ نسمة عام ١٩٧٩ كما أن عدد الاذاريين عموماً في الاتحاد السوفييتي بلغ ٥٤٧٧٣٣٠ نسمة في عام ١٩٧٩ منهم ١٦٠٤٨١ اذارى في أرمينيا و٢٥٥٧٨٦ اذاري في جورجيا.

جمهورية ناخجوان السوفييتية الاشتراكية الذاتية الحكم :

وهي خانية ناخجوان Nakhjiwan التي تعرف في المصادر العربية باسم النشوى وتقدر مساحة هذا الجزء من أذربيجان الذي يحاط بالأراضي الأرمينية من ثلاث جهات بحوالي ٥٥٠٠كم٢ وله حدود مع إيران تمتد حوالي ١٧٠ كم ويقدر حدوده مع تركيا بعشرة كيلو مترات. ومنذ أن فتحها حبيب بن مسلمة عام

٢٤هـ/٦٤٥م اصطبغت بالصبغة الإسلامية واستقل بها عن الحكم الفارسي جعفر قولى خان عام ١٧٤٧ ثم غزاها الروس في عهد أميرها كريم خان كانغرلى عام ١٨٢٥ وألغيت هذه الخانية الإسلامية عام ١٨٤٠.

وقد أكدت الاتفاقيات والمعاهدات الدولية والثنائية ارتباط ناخجوان الوثيق والدستوري بأذربيجان. فمثلاً:

١ – على ضوء معاهدة برست ليتوفسك Brest-Litovsk بتاريخ ١٩١٨/٣/٣ فإن حدود دولتي أرمينيا وأذربيجان اللتين استقلتا عن روسيا في ١٩١٨/٥/٢٨ يشير إلى أن زنكيزور وقره باغ وناخجوان تقع داخل حدود أذربيجان.

٢ – معاهدة غومرو التي تمت بين تركيا وأرمينيا بتاريخ ١٩١٨/١١/٢ جاء في مادتها الثانية مايلي: (إن الإدارة التي سيتم تأسيسها بالانتخاب في مقاطعات ناخجوان وشارور وشاه تختى ايا كان شكلها لادخل لأرمينيا فيها وتبقى تحت حماية تركيا).

٣ – معاهدة موسكو بين تركيا والاتحاد السوفييتي بتاريخ ١٩٢١/٣/١٦م تضمن مادتها الثالثة مايلي: (اتفق الطرفان بأن ناخجوان التي رسم حدودها في الملحق ١ – (T) ستكون منطقة حكم ذاتي في حماية أذربيجان بشرط أن لاتتدخل دولة أخرى في شئونها).

٤ – معاهدة قارص التي تمت بين تركيا وأذربيجان وجورجيا وأرمينيا في ١٩٢١/١٠/١٣ تتفق حكومات تركيا وأرمينيا وأذربيجان بأن ناخجوان التي رسم حدودها بالملحق (٣) بهذه المعاهدة هي منطقة حكم ذاتي تحت حماية أذربيجان.

٥ – مؤتمر دول الحلفاء في فرساى ١٩٢٠/١/١٢ الذي اعترف بجمهورية أذربيجان الوطنية فقد اعترف بحدودها التي تضم ناخجوان وقره باغ.

٦ – وفي ٩ فبراير ١٩٢٤ صدر قرار مجلس السوفييت الأعلى بتحويل منطقة ناخجوان الذاتية الحكم إلى جمهورية ناخجوان السوفييتية الاشتراكية الذاتية الحكم تحت سيادة جمهورية أذربيجان السوفييتية الاشتراكية.

وقد بلغ سكان ناخجوان ٢٧٢ ٠٠٠ نسمة منهم ٤٠ ٠٠٠ في العاصمة ناخجوان وكان سكانها ٢٤٠ ٤٥٩ نسمة في إحصائية عام ١٩٧٩ منهم الاذاريون ٢٢٩٩٦٨ أي بنسبة ٩٥,٥٪ بينما نسبة الأرمن ١,٥٪ حيث بلغ عددهم ٣٤٠٦ نسمة.

إقليم ناغورنو - قره باغ الذاتي الحكم :

قره باغ أو إقليم ناغورنو - قره باغ الذاتي الحكم كما يسمى حالياً - هو قاعدة خانية إسلامية استقل بها بناه على خان جاوان شير عن الحكم الفارسي عام ١٧٤٧ ودامت سيادة هذه الأسرة المالكة المسلمة عليها إلى أن احتلها الروس عام ١٨٠٥ وألحقت بروسيا بموجب معاهدة كلستان عام ١٨١٣ ثم ألغيت الخانية عام ١٨٢٢.

عندما انهارت جمهورية ما وراء القفقاس الفيدرالية في مايو ١٩١٨ ظهر النزاع الإقليمي في رسم حدود الدول الثلاثة التي استقلت وهي أرمينيا وجورجيا وأذربيجان وانتهى الصراع باعتراف دول الحلفاء وعلى رأسهم بريطانيا التي احتلت أذربيجان بدعوة من الأرمن بالدول الثلاثة وحدودها في مؤتمرهم الدولي في فرساي عام ١٩٢٠.

وكان أقليم قره باغ حينذاك ضمن حدود أذربيجان الدولية وعندما احتل الجيش الأحمر دول جنوب القفقاس كتب الزعيم الأرمني اناستاس ميكويان Mikoyan Anastos بتاريخ ٢٢ مايو ١٩٢٠ إلى لينين مفندا ادعاءات الأرمن حول قره باغ وقائلاً: يعمل أعضاء حزب طاشناق وهم عملاء حكومة أرمينيا على ضم قره باغ إلى أرمينيا، ولكن قره باغ لاصلة له بيريفان تاريخيا ومن مصلحة أهله أن يكون مع باكو.

وفي ديسمبر ١٩٢٠ تم توقيع معاهدة بين جمهورية روسيا السوفييتية الاشتراكية الفيدرالية وأرمينيا تضمنت تأييد طلب الأرمن لأقليم زنكيزور وليس قره باغ.

وكان دكتاتور روسيا ج.ف. ستالين وهو أصلاً من جورجيا المجاورة لأرمينيا وأذربيجان قد خطط منذ بداية الثورة الشيوعية لأركان اللعبة السياسية في القفقاس وخاصة بعد أن تولى ئـــاسة مفوضية شئون القوميات Commission-er of Narkomnats في ديسمبر ١٩١٧ وسبق له أن شارك شخصياً في الحركات الشيوعية وإحداث المذابح الأرمينية في باكو وعندما غادرها إلى موسكو تولى جي.ك. اورجو نيكيزه G.K. Ordzhonikidze وهو جورجي أيضاً رئاسة مكتب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي لإقليم القفقاس ومنح صلاحيات واسعة لإدارة الشئون الداخلية والخارجية لأذربيجان وكان رجل ستالين القوى وسلاحه لإنفاذ أوامره في القفقاس وقد نجح هذا في تشكيل الحزب الشيوعي الأذربيجاني برئاسة سرغي. ام. كيروف Sergei Kirov M. في صيف عام ١٩٢١ وهو روسي ونائب رئيس مكتب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي لإقليم القفقاس.

وبهذا أحكم ستالين قبضته على أذربيجان وخاصة أن الحزب الشيوعي الأذربيجاني الذي يتولى السلطة العسكرية يتكون عموماً من الأرمن والروس وغدا جهاز حكومة أذربيجان الذي يشكله أغلبية آذارية برئاسة ناريمان ناريمانوف محدود الصلاحية والنفوذ ووجد الأرمن الفرصة سانحة لهم في وضع خطة تهدف إلى بسط سيطرتهم على قره باغ وخاصة أن ستالين قد تولى مهمة تنفيذ هذه الخطة ودبر لها.

بدأت مناقشة إنشاء إقليم حكم ذاتي في غرب قره باغ الجبلي في صيف عام ١٩٢١ وذكر الدكتور ناريمان ناريمانوف رئيس جمهورية أذربيجان السوفييتية في تقرير عن حدود القفقاس قدمه إلى رئاسة اللجنة المركزية التنفيذية في ١٩ يوليه ١٩٢١: (يبقى إقليم قره باغ الجبلي جزأ لايتجزأ من أذربيجان السوفيتية يتمتع بحق الحكم الذاتي تتولاه لجنة تنفيذية ضمن إطار الدستور السوفييتي) وفي ٢٤ أكتوبر ١٩٢١ تقرر في اجتماع المكتب السياسي برئاسة كيروف السكرتير الأول

للحزب الشيوعي الأذربيجاني (تشكيل لجنة خاصة تعمل على رسم حدود الجزء المراد تأسيس الحكم الذاتي في قره باغ) وفي ديسمبر ١٩٢٢ تكونت لجنة ثلاثية عليا من السكرتير الأول للحزب الشيوعي الأذربيجاني كيروف الروسي ومرزابكيان Mirzobekian الأرمني وأ . ن. كوراكوزوف A.N. Korakozov وهو غير أذربيجاني بصرف النظر عن كنيته كما شكلت الرئاسة في أذربيجان لجنة تنفيذية تتكون من سبعة أعضاء برئاسة كوراكوزوف ولم يكن بين أعضاء هذه اللجنة أيضاً التي كلفت بوضع إنشاء إقليم ذاتي لقره باغ موضع التنفيذ آذارى واحد رغم أنها تخص الاذاريين وبلادهم.

وجاء في قرار اللجنة الذي رفع لرئاسة الحزب الشيوعي الاذربيجاني في ٢٠ يونيه ١٩٢٣ مايلي: (يفصل إقليم قره باغ بجزأيه الجبلى والسهلى عن أذربيجان ويوضع في وحدة ادارية مستقلة) وبعد ذلك بعشرة أيام أوصت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الأذربيجاني اللجنة المركزية التنفيذية لجمهورية أذربيجان السوفيتيية إنشاء إقليم قره باغ الذاتي الحكم.

وهكذا بقرار من الحزب الشيوعي الاذربيجاني واللجنة المركزية التي لاتضم في عضويتها أي اذاري فصلت قره باغ من السلطة المباشرة لحكومة أذربيجان.

وفي ٢٤ يوليو ١٩٢٣ صدر مرسوم بإنشاء أقليم ناغور نو قره باغ الذاتي الحكم وتعيين كوراكوزوف رئيساً لمفوضية الشعب السوفييتي لأقليم ناغورنو قره باغ.

وهذا الأقليم تقدر مساحته بحوالي ٤٤٠٠كم ويضم أربع مقاطعات هي: جاوان شير وشوشا وجبرايل وجزء من كوبا تلينسك من إقليم زنكيزور.

وفي عام ١٩٧٩ وجه الكاتب الأرمني سيروهازايانان Sero Hauzouyan لأول مرة خطاباً إلى الرئيس السوفييتي برجينيف يطلب ضم إقليم ناغورنوقره باغ الذاتي الحكم إلى أرمينيا. وفي ١٨ نوفمبر ١٩٨٧ نشرت مجلة هومانيت Huma-nite أن ابيل اغان بفيان Abel Aganbegyan مستشار الرئيس السوفييتي ميخائيل

جورباتشوف لشئون الاقتصاد صرح في اجتماع للمعهد الأرمني الفرنسي في باريس يقول: (أطالب بضم إقليم ناغورنو قره باغ الذاتي الحكم لأرمينيا وبصفتي خبيراً اقتصادياً أعتقد أن مصلحة الإقليم هو مع أرمينيا أكثر من أن تكون مع أذربيجان وقد تقدمت بعرض هذا الأمر إلى المجلس السوفييتى الأعلى) وقد نشرت المجلات والصحف الأرمينية مثل المخبر الأرمني Armenian Report في الولايات المتحدة الأمريكية واسبارز Asbarez في أوربا تصريحات عديدة عن خطة المستشار الاقتصادي ورئيس أكاديمية العلوم السوفييتية ابيل اغان بغيان في فصل قره باغ من أذربيجان وضمه لأرمينيا.

الوضع الإسلامي في أذربيجان :

منذ الاحتلال الروسي لأذربيجان عام ١٨٢٨ قاوم الأذاريون هذا الاحتلال إذ حدثت ٥٤ ثورة مسلحة أثناء السنين الأولى القليلة من الاحتلال الشيوعي لأذربيجان عام ١٩٢٠.

وقد شن الشيوعيون هجومهم على الجوامع والمساجد التي يتجه إليها المسلمون لأداء صلواتهم وتدارس أمور دينهم ومع أنه لايوجد إحصاء دقيق لعدد المساجد قبل الحكم الشيوعي في أذربيجان إلا أن انتشارها كان شاملاً ويذكر الرحالة التركي أوليا جلبى الذي زار مدينة ناخجوان في القرن السابع عشر الميلادي أنه وجد في ناخجوان ٧٠ جامعاً و٤٠ مسجداً و٢٠ خانا للمسافرين و٧ حمامات وحوالي ١٠٠٠ دكان ويسمى خمسة جوامع كبيرة مزخرفة بالنقوش والفسيفساء، وأن جامع أحمد باشا يشبه جامع رستم باشا في استانبول.

وبتاريخ ١٩٢٨/٧/٦ نشرت جريدة كوميونست مقالاً باسم الحزب والدين تضمن بأن عدد المساجد التي بقيت إلى أوائل عام ١٩٢٨ هو ١٣٦٩ مسجداً (٩٦٩ مسجداً للمسلمين الشيعة و٤٠٠ مسجد للمسلمين السنة) ثم انتهى الأمر إلى إغلاق الجميع عام ١٩٣٥.

ثم بدئ بفتح جامع تازه بير عام ١٩٣٦ ووصل بالتدريج عدد المساجد المفتوحة إلى ١٨ جامعاً ومسجداً في أذربيجان عام ١٩٨٧.

ومع التغييرات السياسية التي حدثت مؤخراً تقرر افتتاح ٣٧ جامعاً منها ٧ جوامع في باكو، وبهذا يكون عدد المساجد التي تفتح أبوابها للمصلين ٥٥ مسجداً. وهو عدد ضئيل بالنسبة للمسلمين الذين يصل نسبتهم إلى ٨٠٪ من جملة السكان البالغ عددهم ٦٦١٤٠٠٠ عام ١٩٨٥.

ويشترك المسلمون الشيعة والسنة في أداء صلواتهم في هذه المساجد خاصة في مناطق اختلاطهم، كما أن نسبة المسلمين الشيعة تصل إلى مابين ٧٠ - ٧٥٪ من سكان أذربيجان بينما يقدر عدد المسلمين السنة من الأذاريين والداغستانيين والتتار والكرد بحوالي ١,٧٥٠,٠٠٠ نسمة ويتمركزون غالباً في مناطق توخا - زاقاتالا - قاخ - بالاخاني - غوسار - خاجمارس - شماخى - كوبا على طول حدودها مع داغستان وجورجيا.

كما حارب الشيوعيون اللغة الاذارية التي كانت تكتب بالأحرف العربية إلى أن فرضت الأبجدية اللاتينية عام ١٩٢٩ ثم فرضت الحروف السلافية عام ١٩٤٠.

وفي الوقت الذي استمر الأرمن في استعمال لغتهم وأبجديتهم بحرية تامة فرض استعمال اللغة الروسية في جميع الإدارات والمعاملات والإجراءات الرسمية والحكومية في عام ١٩٥٣.

بالإضافة إلى ممارسة الشيوعيين ضد اللغة الاذارية والأبجدية العربية، بغية قطع صلة المسلمين بتراثهم الثقافي ولغتهم القومية صادر الشيوعيون جميع الكتب الإسلامية والتاريخية من أيدي الناس وفرضت قوانين صارمة لمنع تداولها وقرائتها حتى إذا رغب المسلمون معرفة عقيدتهم وأحكام دينهم لاتتوفر لهم الكتب ولايمكن لهم الاستفادة من كتب التراث بعد أن تغيرت أبجديتهم وقد كتب أكرم إلياس في جريدة الأدب بتاريخ ٧ أكتوبر ١٩٨٨ (أن المسلمين الاذاريين لايعرفون مافي القرآن لماذا لاتترجم معاني القرآن إلى لغتنا).

وقد دفع هذا الأمر بالإدارة الدينية لمسلمي ما وراء القفقاس التي يتولى رئاستها الحاج الله شكر باشا زاده للإعداد لإعادة الترجمة الاذارية لمعاني القرآن الكريم التي وضعها محمد حسن ملا زاده شيكي باسم (كتاب البيان وتفسير القرآن) عام ١٩٠٨، كما فتحت معهداً إسلامياً في جامع تازه بير بقبول ١٥ طالباً ثانوياً في الصف الأول وتصل مدة الدراسة فيه إلى خمسة أعوام وكان الطلاب الاذاريون يتلقون عادة تحصيلهم العلمي في طاشكند وبخارى.

ومع هذا التقدم الجديد إلا أن العدد متواضع لاسيما إذا قورن بحجم المسلمين وحاجتهم إلى الأئمة والعلماء الذين يؤكد الحاج الله شكر باشا زاده قلتهم جداً في أذربيجان. ويعمل الحاج الله شكر باشا زاده على التعريف بماضي أذربيجان الإسلامي حيث أفاد في تصريح له بتاريخ ١٢ يونيه ١٩٨٩ بأنه يعد كتاباً شاملاً عن تاريخ أذربيجان الإسلامي. كما أن دار نشر افرورا AVRORA في لينيغراد تعد كتاباً مصوراً باسم (القفقاس في العالم الإسلامي) عن أهم الآثار الإسلامية في جنوب القفقاس.

والإدارة الدينية لمسلمي ما وراء القفقاس التي مقرها باكو في أذربيجان هي الجهة الرسمية التي تشرف على النشاط الإسلامي بالإضافة إلى أذربيجان نشاط المسلمين في أرمينيا الذين يقدر عددهم بحوالي ٤٥٠٠٠٠ نسمة عام ١٩٨٦م والمسلمين في جورجيا الذين يتمركزون في العاصمة تفليس وجمهوريات ابخازيا واجاريا واستونيا الجنوبية الذاتية الحكم وهم من السنة ويقدر عددهم ١,١٥٠,٠٠٠ نسمة عام ١٩٨٦.

والحاج الله شكر باشا زاده قد انتخب عضواً في مجلس الشعب الأعلى للاتحاد السوفييتي عام ١٩٨٩ وله نائبان هما الشيخ سلمان موسى سعيد من أهل السنة والشيخ عباس بن شعبان من الشيعة.

الخلاصة :

التغيرات السياسية التي بدأت مع تولي الرئيس ميخائيل جورباتشوف مقاليد السلطة في الاتحاد السوفيتي التي عرفت باسم جلاسنوست أي المصارحة والمكاشفة وبيريسترويكا Perestroika بعني إعادة التشكيل والبناء وضربت أركان الحكم الشيوعي في أوروبا الشرقية أثارت استغراب الرأي العام في العالم واستحوذت على أهتمام السياسية والمفكرين بالدراسة والتحليل لاسبابها وأهدافها وغاياتها ، لأن هذه لتغييرات لاتقتصر على الدول الشيوعية فحسب بل تمس العلاقات الدولية والحكومات والشعوب ولم يعد مستحيلاً ان تتغير الخريطة السياسية في بعض مناطق العالم.

وقد اعتقد الشيوعيون والصليبيون بأن سياسة البطش والعنف وفرض هيمنة الفكر الماركسي على وسائل الثقافة وأجهزة التعليم ووسائل الإعلام على المسلمين الذين أحاطهم بسور من حديد ، وعزل ماضيهم بإلغاء أبجديتهم وقتل علمائهم ، ومكنهم من تشويه عقيدة المسلم وطمس شخصيته الإسلامية كشفت بأن المسلمين يتمسكون بأهداب دينهم وأن القسوة الشيوعية مهما بلغت وأن أساليب البطش مهما تنوعت لم تتمكن من أبعاد المسلمين عن دينهم الحنيف ، وقد تكون ممارسة الشعائر الدينية ضعفت ولكن الروح الإسلامية لم تزل مشتعلة تحتاج إلى تذكيتها بتوعية صحيحة وتوجيه حكيم حتى تسترجع قواها لأداء دورها الكامل في المجتمع الإسلامي والله متم نوره ولو كره المشركون.



المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

دراسة عن أذربيجان